سركون بولص

عَظمة أخرى لكلب القبيلة

شعر

منشورات الجمل

ولد **سركون بولص** عام ١٩٤٤ بالقرب من **بحيرة الحبّانية** ـ العراق. يقيم منذ عام ١٩٦٩ في سان فرانسيسكو ـ الولايات الأمريكية المتحدة، وقد أمضى السنوات الأخيرة متنقلاً بين أوروبا وأمريكا، خصوصاً في ألمانيا، حيث حصل على عدّة منح للتفرّغ الأدبي وصدر له بالألمانية: **غرفة مهجورة**، قصص (برلين ١٩٩٦)؛ **شهود على الضفاف**، قصائد مختارة (برلين ١٩٩٧)؛ **أساطير وغبار** (بالإشتراك مع سفيتا أوبودياس) (مونستر ٢٠٠٠). من كتبه: **الوصول إلى مدينة أين**، شعر (أثينا ١٩٨٥)؛ **الحياة قرب الأكروبول**، شعر (الدار البيضاء ١٩٨٨)؛ **الأول والتالي**، شعر (كولونيا ١٩٩٢)؛ **حامل الفانوس في ليل الذئاب**، شعر (كولونيا ـ بيروت ١٩٩٦)؛ **إذا كنت نائماً في مركب نوح**، شعر (كولونيا ـ بيروت ١٩٩٨). توفي ببرلين ٢٠٠٧.

سركون بولص: عَظمة أخرى لكلب القبيلة، شعر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رسمة الغلاف: **ضياء العزاوي**

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

«المدينة التي ليست لها كلابُ حراسة
يحكمها ابنُ آوى» .

مثل سومري

١

الكرسي

كرسيّ جدّي ما زالَ يهتزّ على
أسوار أوروك

تحتَهُ يعبُرُ النهر، يتقلّبُ فيهِ
الأحياءُ والموتى

أبي في حراسة الأيّام

لم تكن العَظمة، ولا الغُراب

كانَ أبي، في حراسة الأيام
يشربُ فنجان شايه الأوّل قبل الفجر، يلفّ سيجارته الأولى
بظفْر إبهامه المتشظّي كرأسِ ثُومة.

تحت نور الفجر المتدفّق من النافذة، كانَ حذاؤهُ الضخم
ينعسُ مثل سُلحفاة زنجيّة.

كان يُدخّن، يُحدّقُ في الجدار
ويعرفُ أنّ جدراناً أخرى بانتظاره عندما يتركُ البيت
ويُقابلُ وحوشَ النهار، وأنيابَها الحادّة.

لا العَظمة، تلك التي تسبحُ في حَساء أيّامه كأصبع القدَر
لا، ولا الحمامة التي عادت إليهِ بأخبار الطوَفان.

حَصاة

في اليوم التالي للطوفان
صباحٌ راكد، وفي قعر العالم دمعة، متجمّدة
مثل حَصاة يتيمة.

يذهبُ الإعصار بكلّ شيء، بالنخلات والبيوت
بالقوارب والدرّاجات والمنائر، وتبقى

هذه الحصاةُ في مكانها، متألّقةً بخُفوت
لأنّ يدَ الأبديّة لمّعتْ صلعَتها كماسحِ أحذية الربّ:

ها هيَ تحت قدَمك، دُس عليها إذا شئت، ادعسْ بقوّة.

ثمّ اعبُرْ. لا تخَفْ.
إنّها، بين الحَصى، ليست أكثرَ من حَصاة.

حَمّالُ الكلمات

صوامعُ تنهارُ بنُسّاكها المُلتحين إلى الهاوية
وفي الشارع يعبرُ الحَمّالُ وعلى ظهره آثاثُ بيت:
سَجّادةُ كاشان، طابعة عربيّة، ستائرُ مخمليّة، هَرمٌ من الكراسي.

في غدير الصباحِ أحرّكُ سرّاً أخضرَ، مثلَ ضفدع، بإصبُعي.

أكتبُ كلمةً واحدة في دفتري، وأغلقهُ. حركةٌ تكفي
لكي تتغيّر الدُنيا.

سقط الرجل

في وسَط الساحة
سقطَ الرجُلُ على رُكبتيه.

ـ هل كان مُتعَباً إلى حدّ
أن فقدَ القُدرة على الوقوف؟

ـ هل وصلَ إلى ذلك السدّ
حيث تتكسّرُ موجةُ العُمر النافقة؟

ـ هل قضى عليه الحزنُ بمطرقةٍ يا تُرى؟
هل كانَ إعصارُ الألم؟

ـ رُبّما كانت فاجعةً لا يطيقُ على تَحَمّلها أحد.

ـ ربّما كان ملاكُ الرحمة
جاءَ ببَلطته الريشيّة عندما حانَ لهُ أن يجيء.

ـ ربّما كان اللّه أو الشيطان.

في وسط الساحة
سقطَ الرجلُ فَجأةً مثلَ حصان
حصَدوا رُكبتيهِ بمنْجَل.

المظروف

«أقضي حياتي جالساً مثل ملاك في كرسيّ حَلاق»
رامبو، «صلاة للمساء»

قد يقولُ لي أحدهُم، وقد لا يقول:
تعال رجاءً، قُل لي ما هي القصّة.

ما هذا المظروف على المائدة.

تَقطُّراتُ الشحم المائع
من ذكرى جُثّة الغائب، صنّارةُ الصيّاد
في غَلاصم السمكة ـ ما هي القصّة.

ـ أذهبُ إلى البحر في هذه الأيّام
لأنني مريض، أحتاجُ إلى أنسَام عليلة.

أجلسُ في مقهى على الرَمْلة
متطلّعاً إلى الصخور عندما تغربُ الشمس.

لا أحدٌ يأتي هنا. أحياناً، امرأةٌ وكلبُها. صيّادٌ عجوز.

نوارسُ تطفو في الهواء، مناقيرها
البرتقاليّة، عيونها الصفراء، ترصدُ البحر

وبين حين وآخر قد تحظى بسمكة
تَشي بها حراشفُها الساطعة تحت الماء.

أشربُ بيرتي على مَهلي، ثمّ أمضي
في سبيلي. لن أعرفَ أبداً ما هي القصّة.
لن أفتح المظروف.

الزُّهر والله وآينشتاين

«الله لا يلعبُ بالزُّهر مع الكون».
آينشتاين

اللحظةُ التي أعيشُ من أجلها طوالَ يومي
وحينَ ينتهي، تتلاشى. تهربُ من بين يديّ كطائرٍ
بلا رأس أفلتَ من قفص النسيان، ناسياً في عُشّه بيضتَهُ الأخيرة.

لحظة المواجهة الصارمة مع مخلوقات الواقع الجارح
كومةِ المخالب والمسامير، أعيُنِ الصقور الوامضة بفوسفور الليالي
فأسِ التتريّ المقذوفة من على ظهر الفَرَس. . .
ما زالت تطيشُ منذُ ألف سنةٍ في فضاء أيّامي.

اللحظةُ التي لم تُحَمَّض، صورةُ الوَجد الذي
بقيَ راشحاً في ظلام الوقت. الوقتُ الذي لم يَحِنْ.
لم تأتِ النحلةُ لتمتصّ العسَل، لم تمتلئ القفائر. ذهَبُ الوقت.
شُهدُ الزمان. سبائك تتقطّر بين أصابعي، ألعقها وأنا نعسان.

أنا العاجزُ عن النوم في كونٍ كلّما ألقى اللّه على ظهره بالزُّهر
ولدتُ من جديد. تطوّحَ موبي ـ ديك في البحر

شاهراً بياضَه القَتّال، أبيضَ كالحقيقة

وآخاب المعتوه يدفنُ حَربتهُ الصدئة في جنبه ما زال. كتابُ الليل ينفتح
كلما ألقى اللّه على ظهر هذا الكون بالزُّهر
يا سيّدي آينشتاين...

تحت نافذتي ملاكان ضيّعا طريقهما إلى الجنّة
ينامان مُتعانقَين، يُغطّيهما الثلج.

لحظةٌ أعيشُ من أجلها طوالَ يومي، وحينَ ينتهي، تتلاشى.

فجوة الأزمنة المتاحة

لا حدّ لهذا الهُجران، أزاولهُ
كأنه عادةٌ مُزمنة، أثقلَ من فيلٍ هَرمٍ يتربّع في
مَرْجةٍ محصودة بلا عشبة، وفي فجوة الأزمنة المتاحة لي

أطلّ بنصف وجهي لأشهدَ أيامي المدفوعة وراء القضبان
تتمرّغ في طين الإمكان مثل عصفورٍ يتمَرْغَلُ وسط بركةٍ ضحلة.

وها هي ذاكرتي التي لم تُرد أن تصير كيساً تلقي فيه الآلهة
فضلاتها المتبقّية من عشائها الأخير، تؤرّثُ نارَها.

ها هي تخطيطاتُ دماغي المهزوزة في آخر الليل
على صفحات دفتر أسود تركتهُ خلسةً تحت باب المحكمة
حيثُ ينتظرُ الشاهدُ القرويُّ في قصّة كافكا أن يفتحوا له الباب.

أجلجلُ هذه المفاتيح لا لأنني سجّان، بل لأنني
أنا من يفتحُ الأبواب، ولا يعرف كيف يغلقها، وينام.

ما يُحتمل أن يكون

يُحتمَلُ أن أكون أنا من يمشي طائعاً أمراً، من فوق أو تحت، جاءني
لا أدري متى.

مَن جاءني، من يأمرُ: هذا ما لا أدريه. ولا أُعنَى بأن أدري. ماشٍ، في
الريح الشائكة، يُخدّشُ الهواءُ جلدي.

هذا العالمُ حديقةُ أشواك.

يُحتملُ أن أكون أنا السائر، وذكرياتي على ظهري مثلَ خِرجٍ أو بُردُعَة
ومن حولي تاريخُ أهلي يُلَملَمُ، تحتَ جنح الظلام، على

عجَلٍ، كرايةٍ مهزومة.

تَحَفُّزي، الذي انفقأ مثل فَقّاعة في غدير آسن، يستحثّ الضفادع، قبلَ
صلاة المغرب على النقيق.

شَللُ أطرافي إشاعةٌ صحيحة.

يُحتمل أن أطيلَ شَعري حتّى تضربَ لحيتي ركبتيّ. وأن أقَنّعَ وجهي بلحية نبيّ.

أو ربّما أكتفي بسرّ عاديّ، لا يُثيرُ حفيظةَ السَّحَرة
ورجال الدين المتربّصين بأتفَهِ شارة تصدرُ عنّي، ولا يدفَعُ درويشَ المحلّة

إلى حافّة الهوّة حيثُ يحلمُ، كعبّاس بن فرناس، بالتحليق.

يُحتملُ أنني، رغم كلّ الظواهر، مجرّد رُقعة بشريّة تتنقّلُ في جُغرافيّة ألألوهة العاقر. أو بيدقٌ ربّانيّ تحرّكهُ يدٌ مجهولة
على رقعة شطرنج.

يُحتملُ. . .يُحتملُ أنّ آدم لم يُطرَد من الجنّة، وحوّاء داست بقبقابها على رأس الثعبان.

هذا، عادةً، ما يحدثُ في الليل، عندما تحلمُ بما يكون
أو يُحتَملُ أن يكون.

إلى الملكوت

من رُزءٍ إلى كارثةٍ إلى مصيبة
من قصيدةٍ إلى أخرى، أعضلُ في طريقي
إلى الملكوت: جلجامش بعد أن عادَ من زيارة إلى «ذلك النائي»
لا في يدي نبتةٌ سحريّة، ولا في قاع دجلة
ثُعبان ينامُ راضياً بما استعاد.

من قمّةٍ إلى قاعٍ إلى مَشْتلٍ لأرزاءٍ جديدة
أسلكُ هذا الزقاقَ المؤدّي إلى سَبخة تَلطأُ فيها أزبادُ الماضي
والحاضرُ الزافرُ في وجهي يتلظّى، مقتلاً بعد آخر. . .

أنتَ الزاحفُ من يومٍ إلى آخر
نحو بؤرة الطوفان، نحو الوكْر الذي
يتخبّأُ فيه صائغُ الصيغة، سيّدُ اللعبة، رامي النَرْد
على لوح الخشب الملطّخ بالدم، أنت الماضي من الوهم إلى
الحقيقة.

وأيّ إلهامٍ يمكنُ لهُ اليومَ أن يأتيني محسوباً لا بالكلمات محسوباً، بنبضةٍ هنا، بجُرحٍ هناك.

من، إذا ما جاءَهُ الخبَرُ، لن يتعوّذَ لاعناً من رَبْقة الأخبار.

وفي هذا المساء، يا فاييخو، تعلو الأبجديّاتُ وتسقط. المبنى ينهار، والقصيدة
تطفئ نجومها فوق رأس الميّت المكَلَّل بالشوك. ثمّة ما سيأتي

ليسحبَ أجسادَنا على مَجراهُ الحجريّ كاندفاعة نَهر.

ثمّة حجر سيجلسُ عليه شاعرُ الأبيض والأسود في هذا الخميس.
واليوم، أنا من يصيح.

٢

يدا القابلة

ومن غير أن نولد، كيفَ نحيا مع الريح
دونَ كفالات: يدُ النوم مُدْلاةٌ على مَهد الوليد حتّى
تأتي الظلال.

الصدى يعرفنا، آتياً من وراء العالم.

تعرفنا خادمةُ اللّه
هذه التي تمدُّ جسراً بين دُنيانا والآخرة.

الريحُ، والظلُّ، والجسر
وبيوتٌ خشبيّة تترنّحُ قبل مجيء الإعصار.
مَسقطُ الرأسِ هذا...

وجهُ الحياة القَلِقُ، حيث ترتعدُ الولادة
ويسقطُ الجنينُ صارخاً بين يديّ أمّ يوسف، القابلة.

قصر ملك الظلمة والنار

زرقاءُ قشرةُ الأرض، مرئيّةٌ من الفضاء
(هذا ما يقولهُ «رُوّادهُ») رغمَ أنّ الجحيم كما نعرف
تَغلي في أحشائها، سُفُلاً، حتى العَظم، وقَصرَ مَلك الظلمةِ والنار.

وعلى السطح، حياةٌ جاريةٌ، حلمُ السماءِ للفقَراء
يُغلقُ ويُفتَح، كمظلّة في الصحراء، جفنَ عينٍ لا تُغمضُ عن أخطائهم الصغيرة، ولا لحظة.

والمَنُّ لن يسقطَ إلاّعلى رأس السائر
تحتَ نجمة الغُفران!

قيلَ أنّ القدّيسَ جيروم كانَ يَقتاتُ في صحرائهِ على الجَرادِ والنَدى

وأنّ الله في كرسيّه المُرصَّع بالجواهر

كينونةٌ تُصغي إلى ما نقول، والحبّ ملاكٌ مُتشرّد ينامُ في خَميلة

يستدعي طائرَ الهجرة، يُذيبُ شمعةَ اللُغز، يجرُّ الكلمة
من شَعرها، يُغلقُ القبرَ على الميّت. . .

يأتي.

من الصُدفة

مِنَ الصُدفة، من اصطدامها بالوقيعة
أن تنتهي الحكمة مستقيمةً كشاقولٍ بباب الريح
والعَقلُ نَقّارُ أسمالٍ في صندوق زبالة الفيلسوف.

ومن الصُدفة، من انصدافها، أن أكون، أنا
السائرُ بلا هدَفٍ محَدَّد، دائراً هنا كثَور الطاحون
حولَ محوَرٍ أشبه بالسارية، مرفوعةً، بلا عَلمٍ، وسطَ حياتي.

في الليل وحده أستطيع أن أنادي
من أريدهُ أن يُنادمَني، إلى هذه المأدبة الصغيرة في عَراء أيّامي.

الطينُ، والجلدُ، هنا. طينٌ يغوصُ فيه زُعنفُ تيامات
جلدٌ يَتسلّخُ عن صلعةِ إنليل. أنا المنتظرُ في بيت الخراب
هنا حيث تجتمعُ الغربانُ والبيارقُ السوداء والعماماتُ واللّحى
في شجرة الأنبياء اليابسة.

هنا ينفتحُ البابُ على شَذرةٍ من عُماي.
أهذا يعني أنّ ناري ما زالت تَلهو بالخشَب؟

أنا كنّاسُ السماء، ومكنستي المضلَّعة، من ريش أوهامي
المختبَرة بالنار، وقشّ جنوني المُتَذَرّي في كلّ هَبّة من هذه الريح
هل من الممكن أنني أنسيتُها سرَّ القُمامة؟

ينفتحُ الباب، وأرقدُ بكلّ حجمي في قلب الليل المريح مثلَ سرير.

جسدي الحيّ في لحظته

النوافذُ مُغطّاةٌ بستائرها المُخَرَّمة، وأنا
راقدٌ في سريري، بؤرةً لشَذراتٍ آتية من باطن أرضي أنا، جسَدي
الحيّ في لحظته، هذا التنور الذي لا يكفُّ عن تَدوير الأرغفة
للجياع المزدحمينَ على بابي.

وجهي مُعَلّى للسماء وما من زاويةٍ للتنَحّي
شَعري مُعَفَّرٌ بأتربة الشمس، والهواءُ يدخلُ قُمرات سفينة
أبعثُ بها إلى البحر، بين آونةٍ وأخرى، مصنوعة من كلماتي.

كلماتي المليئة بالنذائر، والنُذُر، ومفاجآت أيّامي.
هي الأثقَل من تُراب قبر أبي المجهول في مسقط رأسي.

لا، لستُ الطريحَ الذي قد تتخيّل، على سرير انعزالاتي
أبعدَ من أن تصلني صيحاتُكَ المجيدة.

النورُ يُملّسُ وجهي، والرؤيةُ قد تُحيلُ جدرانَ غرفتي
إلى مسرح ورَقيّ، يُشعلُ فيه النارَ عُودُ ثقاب.

يدي قد تُسقطُ حِمْلها من الكلمات على هذه العتبة المغطّاة بالخطى وتُبَعثرني ريحُ الربّ الغاضب المترنّح في مسيرتهِ عبرَ الصحراء كحَفنةٍ من الحنطة.

(آه، يا أوجُهَ التواريخ الجريحة!)

هذا أنا: صوتُ أجراسي الخفيّة في اللحم، أعلى من عاصفةٍ وشيكة.

الناجي

قاموسُ الندى، مُعجَمُ الأنداء الساقطة
عبرَ الأفق المجَمَّرِ على وجهي: أنا قَيلولةُ ذاتي.
أنا ظهيرةُ أيّامي. أنا لستُ سوى هذه الصفحة المحترقة بنظرتي.

الريحُ وحُنجرتي: أنا من يُنادي بين سارية المستقبل، وراية الماضي.

أنا العَبدُ. أنا العاجز، بعُكّازينِ تحتَ إبطيَّ أعرجُ نحو المنتهى

يتبعني الموتُ بأرجُلِ عنزةٍ سوداء.

تتبعُ رأسي حربةُ الساحر ذاتُ الرأسين
وأعرفُ أنني، رغمَ هذا، سأنجو لأروي الخبَرَ على الأحياء.

لحظة الجندي

تلك اللحظة التي أشِكُّ فيها حَربتي الصدئة
جانبيّاً، بلا هِمّة، في جَنب المسيح
هو الذي يحتقرُ إمبراطوريّتي، وروما، كلَّ روما، بنظرة
أنا الجنديّ التافه الذي قد يذكرهُ التاريخ بكلمة أو كلمتين
لأنهُ أهانَ النبيّ، ألبَسهُ تاجَ شوكه، سَقاهُ خَلاً. . .
أنا الدودةُ الحيّة في تُفّاحة العالم.

تو فو في المنفى

«دُخانُ الحرب أزرق
بيضاءُ عظامُ البشَر».
تو فو

قريةٌ يَصلُ إليها **تو فو**
دَسكرةٌ فيها نارٌ تكادُ تنطفئ
يَصلُ إليها عارفاً أنّ الكلمة
مثل حصانه النافق، دون حَفنة من البَرسيم
قد لا تبقى مُزهرةً بعدَ كلّ هذه النَكبات!

كم ساحة معركة
مرّ بها تصفُرُ فيها الريح
عظامُ الفارس فيها اختلطتْ
بعظام حصَانه، والعشبُ سرعانَ ما أخفى البقيّة!

نارٌ تتدفّأ عليها يَدان
بينما الرأس يتدلّى والقلبُ حَطب

هو الذي بدأ بالتِّيه في العشرين
لم يجد مكاناً يستقرّ فيه حتى النهاية.

حيثما كان، كانت الحربُ وأوزارُها.
ابنتهُ ماتت في مجاعة...

ويُقالُ في الصين أنه كانَ يكتبُ كالآلهة!

قريةٌ أخرى يصلُ إليها **تو فو**
يتصاعدُ منها دُخانُ المطابخ
وينتظرُ الجياعُ على أبواب مَخبَز.
وجوهُ الخبّازين المتصبّبة عرَقاً، مرايا
تشهدُ على ضَراوة النيران.

تو فو، أنت، أيها السيّد، يا سيّد المنفى.

محمود البريكان واللصوص في البصرة

حَبلُ السُرّة أم حبل المراثي؟

لا مَهرَب: فالأرض ستربطنا إلى خصرها
ولن تترك لنا أن نُفلتَ، مثلَ أُمّ مفجوعة، حتى النهاية.

كلّ يوم من أيامنا، في هذه الأيام، جمعةٌ حزينة!

ويأتيني، في الجُمعةِ هذه، خبَرٌ بأنّ البريكان
ماتَ مطعوناً بخنجر
في البصرة
حيث تكاثرَ اللصوص، وصارَ القتَلة
يبحثونَ عن. . . يبحثون، عَمَّ صارَ يبحثُ القتَلة؟

حتى هذا الشاعر الوديع لم يَنجُ، هو الذي
كان يعرفُ منذ البداية لونَ القيامة، وهجرةَ الفراشة
نحو متاهة العالم السفلي، حيثُ الليل، واللّه، واحد.

أكانت هذه معرفتك، هل كان هذا سرّك؟

كنتُ أراك، أنتَ الملفَّع بغشاء سرّك
بين حين وآخر، في مقهى «البرلمان»
حديثنا عن رخمانينوف، عن موتزارت.

واليومُ الذي أتذكّركَ فيه
اليومُ الذي فيهِ بالذاتِ أراك:
كنتَ اشتريت «صُوَر من معرض» لموجورسكي
من «أوروزدي باك»...

واللّه أعلَم كم كلّفتكَ تلك الأسطوانة
من راتبك الضئيل!

(سأُسمِعُها، في ذكراكَ، اليومَ، نفسي.)

سأصغي... وها هو الخبَرُ يأتيني.

حبلُ السُرّة انقطع، وامتدّ حبلُ المراثي.
إنه الليل. نَمْ، أيّها الشاعر. نَم، أيّها الصديق.

بورتريه للشخص العراقي في آخر الزمن

أراهُ هنا، أو هناك:
عينُه الزائغة في نهر النَكبَات
منخراهُ المتجذّران في تُربة المجازر

بَطنهُ التي طحنتْ قَمحَ الجنون في طواحين بابل
لعشرة آلاف عام...

أرى صورته التي فقدت إطارها
في انفجارات التاريخ المستعادة:

عدوّ يدمّرُ أور. خرابُ نيبور. يدمّرُ نينوى.
خرابُ بابل. يدمّرُ بغداد.
خرابُ أوروك.

صورتُه التي تستعيدُ ملامحها كمرآةٍ
لتُدهشنا في كلّ مرّة
بقُدرتها الباذخة على التبذير.

وفي جبينه المغضّن، مثلَ شاشة

يمكنك أن ترى طوابيرَ الغُزاة
تمرُّ كما في شريطٍ بالأبيضِ والأسود.

إعطِهِ أيّ سجنٍ ومقبرة، اعطه أيّ منفى...

سترى المَنجنيقات تدكُّ الأسوار
لتعلو في وجهكَ من جديد.

وبأيّ وجهٍ ستأتينا، هذه المرّة، أيّها العدوّ؟

بأيّ وجه،
ستأتينا أيّها العدوّ،
هذه المرّة؟

عدوّ

عدوّي . . .
أسنانُهُ المعقوفةُ في أحشائي .

أسألهُ :
هل تُريدني
أن أستسلم ، أن أعترف؟

هل تريد أن تمتلك الساحة
تصولُ فيها وتجول ، هل تريد أن تكون السيّد؟

أسألهُ
ولا أنتظرُ منهُ أن يُجيب .

عدوّي . . .
جاءَ من الماضي
يجيءُ دوماً من الماضي
قبل تيمورلنك . بعد هولاكو . بعدَ الطوفان .
قبلَ الخراب .

بتاريخه الميّت
المُتَذَرذر في الهواء، بوجهه الذي يُغطّيه الصدأ
بقلبه الذي لهُ شَكلُ خوذة
مليئة بالتراب.

وصلت الرسالة

قُلتَ
أنك تكتب والقنابل تتساقط، تُزيلُ تاريخَ السقوف
تَمحقُ وجهَ البيوت.

قلت
أكتبُ إليك بينما اللّه
يسمحُ لهؤلاء أن يكتبوا مصيري. هذا ما يجعلني أشكُّ في أنه الله.

كتبتَ تقول:
كلماتي، هذه المخلوقات المهدَّدة بالنار.
لولاها، لما كنتُ أحيا.
بعد أن يذهبوا، سأستعيدها
بكلّ بَهائها كأنها سريري الأبيض في ليل البرابرة.

أسهرُ في قصيدتي حتى الفجر، كلَّ ليلة.

قلتَ: أحتاجُ إلى جبَلٍ، إلى محطّة. أحتاجُ إلى بشَرٍ آخرين.

وبعثتَ بالرسالة.

الكمّامة

اليوم أريد أن تصمتَ الريح
كأنّ كمّامةً أطبقَت على فَم العالم.

الأحياءُ والأمواتُ تفاهموا
على الإرتماء في حضن السكينة.

لأنّ الليل هكذا أراد
لأنّ ربّة الظلام، لأنّ ربَّ الأرْمِدَة

قرّرَ أنّ آخرَ المطاف هذه المحطّة
حيثُ تجلسُ أرملةٌ وطفلتها على مصطبة الخشب

بانتظار آخر قطار ذاهب إلى الجحيم، في المطَر.

١

أنا الذي

لا نأمةٌ.
هل ماتَ من كانوا هنا؟
لا كلمةٌ
تَرِدُ اللسانَ ـ
الإنتظارُ أم الهجومُ؟
أم التملّصُ من. . .
كهذا الصمت
حين أُهيلُ جمرَ تَحفُّزي حتى
يُبَلّدَني التحامُ غرائزي: أرعى كثَورٍ في الحقولِ
أنا نبوخذنُصّر ـ

تُلقي الفصولُ إليّ أعشاباً ملوّثةً، وألقي النَردَ في بئر الفصولِ ـ

لأجتلي سرّاً يُعذّبني؟ يعذّبني طوالَ الليل. حتى
صيحة الديك الذبيح.

لأجتلي سرّاً. وأسمعَ صيحةَ الأكوانِ؟
(إنهُ مأتمٌ. قالوا لنا: عُرسٌ)
جيوشُ الهَمّ تسحبني
بسلسلةٍ
ويستلمُ الزمانُ أعنّةَ الحوذيّ -

تسبقنا الظلالُ. وراءَنا: كلّ الذين، وكلُّ مَنْ.

*

[«**طالَ الزمَن**»، قالَ الرجُل.]

*

شمسٌ على هذا
المُشَمّع فوق منضدتي:
نهارٌ لا يُضاهيهِ نهارٌ. مثلَ وجه اللّه تبقى
تحتَ عينيّ انعكاستُها، وتخرقني
إلى قاعي كرمحٍ -
إنّها شمسي.

ومَلأى غرفتي، بيتي كقارب رَعْ
يُسافرُ في المتاهةِ
بالهدايا.
شمسٌ على صَحني
وصحني، في الحقيقةِ، فارغٌ:

حَبّاتُ زيتونٍ، بقايا قَنّبيط، عَظمةٌ . . .

ما زادَ عن مَطلوبنا، تلك البقايا ـ

نُتفةٌ في كلّ يوم، قشرةٌ
نُلقي بها في لُجّة التيّار: يبقى الصحنُ. والسكّين.

تبقى شوكةٌ. أبقى، وجوعي، تُخمتي.

*

الشمسُ أو ليمونةٌ
تطفو على وجه الغدير المكتسي
بطحالبٍ ألقي إلى أكداسها حجَراً
فتخفقُ، مرّةً، وتُبقبقُ الأغوارُ ـ فَقّاعاتِ أوهامٍ مُبَدّدةً
رغاباً لم تُجَسّدها الوقائعُ
جَمْجَماتِ لا محلَّ لها من الإعرابِ ـ
أطماعٌ، دهاليزٌ. وعودٌ بالعدالةِ؟
(بالسعادة!)

رَغوةُ الكلمات في بالوعة المعنى

تواريخٌ
وثَمّةُ من يُقْبركُها، ويشطبنا بممحاةٍ. . . . لنبقى.

*

[قالَ الرجُل: «**فاتَ الأمَل.**
زادَ الألم».]

*

شدّوا الضحيّةَ بين أربعةٍ
من الأفراس
جامحةٍ.

جُنودٌ يَسكرون. جنازةٌ
عبَرت وراءَ التلّ. هل جاءَ
البرابرةُ القُدامى من وراء البحر؟
هل جاؤوا؟
وحتّى لو بنينا سورَنا الصينيّ
سوفَ يُقالُ: جاؤوا.
إنّهم منّا، وفينا. جاءَ آخَرُنا
ليُضحكنا، ويُبكينا. ويبني حولنا سوراً من الأرزاء.
لكن، سَوفَ نبقى.

*

[هناك، في بلاد باتاغونيا، ريحٌ
يسمّونها «مكنسة اللّه»].
ريحٌ أريدُ لها الهُبوبَ، على مَدار
الشرق
في أسْماله الزهراءِ

والغربِ المدجَّج بالرّفاهِ: أريدُ أن أختارَها
لتكونَ لي
أن أستضيفَ جنونَها
إذ تكنسُ الأيامَ والأسماء
تكنسُ وجهَ عالمنا كمزبلةٍ
لتنكشف التجاعيدُ تحتَ
أكداسٍ من الأصباغِ
والدمِ، والجرائم
والليالي.

أقبِلي، يا ريحُ.
مكنَسةَ الإلهِ، تقدّمي.

*

قالَ الرجُل. قالَ الرجُل.

لا تَرمِ في مُستنقعٍ حجَراً
ولا تَطرقْ على بابٍ
فلا أحَدٌ وراءَهُ، غيرُ هذا الميّت الحيّ
الموَزَّعِ بَيْنَ بينٍ في أناهُ، بلا أنا
يأتي الصدى:
هل ماااااتَ.
من كاااااانوا.
هُنااااا. . .

جاءَ الواحدُ الذي يقولُ، والآخرُ الذي يَصْمُت.

الذي يمضي، والآتي من هناك.

بينهما كلمةٌ، أو نأمة.

بينهما أنهارٌ من الدم جَرَتْ، فَيالقُ تسبقها الطبول.
ولم يستيقظ أحَد.

بينهما صيحةُ الجنين على سنّ الرمح
في يدِ أوّل جُنديّ أعْماهُ السُكْر
يَخسفُ بابَ البيت.

بينهما مُستَفْعلن، أو ربّما مُتفاعلُن؟

لا
ليسَ بينهما سوايَ:

أنا الذي

من يعرف القصّة

أوشكَ هذا القَرنُ أن ينتهي
(بل انتهى: رمشةٌ من عين التاريخِ
الحَوْلاء، وإذا به. . . يَختفى) -

كيفَ بدأت، متى تنتهي، ضدَّ من هذه المعركة.

من بقيوا، قرأوا الكتابةَ على الجدار.
من هاجرَ، لم يجد الأرضَ الموعودة.

تَكَلّمْ، ماذا ستقول
أو لا تتكلّم، واصغِ إلى الهدير.

إلى أيّ صوت يأتيكَ من هناك.

آنذاك، يمكنك أن ترمي
بمفتاحك في البحر
طالما: لا القفلَ في الباب، لا البابَ
في البيت، ولا البيتَ
هناك.

زُرْ أرضَنا المنسيّةَ أحياناً.
زُر تاريخَنا المهَدَّم: الخاتَمُ الذي
تُريدهُ، موجودٌ هناك.

بئرُ ابراهيم المهجورةُ، حتماً هناك.
حتى المرأة التي عذّبكَ البحثُ عنها، تنتظركَ هناكَ
الآن.

إفتحْ يديك. ضَعْ قلبكَ في المزاد. واسمع القصّة.

اليومُ آتٍ. لاحَصْرَ للعلامات.
الشعبُ يطلبُ خبزاً. كلّ رغيفٍ رايةٌ للحِداد.

التاريخ: في حالة الهارب من مُداهمةٍ وشيكة.
السبّاحُ ماهرٌ، لكنّ التيّارَ أقوى.

الحزنُ في مَجراهُ العميق
يَطفحُ حَيّاً على ضفاف الصلوَات.

بائعُ الفتاوى وخَردوات اللاهوت
يعبرُ، أرجوانيَّ الثياب من دم القرابين
في نسيج أحلامكَ الباذخة، ويقرعُ طبلتهُ المليئة بالريح
طوالَ الليل بين صدغيك، فنشوتهُ الكبرى:

ألّا تنامَ، أو تستريح.

العالمُ ظواهرُ ماديّةٌ لها أسرارُها
الأسرارُ خبيئةٌ في الكلمات، لكنها لا تروي
سوى جزءاً من القصّة.

الجمهورُ صَدّقها، القاضي ارتابَ في
تفاصيلها، العالِمُ ظنّها رقصة
بين الذرّات والأشجار والقرود، بين البذرة والنملة والمرّيخ
وأذرعة المجرّات التي تُعانقُ الغُبار.

لا تتكلّمْ، ماذا ستقول
أو تكلّمْ، واصغِ إلى أيٍّ كان.

الشاعرُ الصينيّ الميّت منذ أكثر من ألف عام، يهمسُ في أذني:

«من هذا البرج العالي
يُدهشني أن أرى كم هَوجاءُ هيَ العاصفة
ألمدينة المسَوَّرة تبدو خاليةً
عندما تسقطُ الأوراق»
لي دونغ

رُبّما هي الريح يا سيّدي لي دونغ
جاءت لتسردَ علينا مرّةً أخرى قصّةَ الطوفان

قبيلتي تعرفها جيّداً، جيلاً بعد جيلٍ بعد جيل
تعرفُ من سيّدها ومن راويها، تعرفُ
أنّ أبطالها أطيافُ طواحين
حاربها دون كيخوته بضراوةٍ ذاتَ يوم:
اليومَ تكفي صرخةُ طفلٍ خلفَ جدران الحصار، لتنهار.

قبيلتي: هذه الصفحة. هذا القلم. هذا الجدار.

إنّهُ النَّسغُ الصاعدُ يا سيّدي
في جذع الحياةِ والشجرة.

لا. إنّهُ بحرُ الصمت، وهذا القاربُ الصغير لهُ قصّة.

صديقي الذي ماتَ بالأمس في المنفى
وهوَ يُصارعُ الألمَ الأخير
عَرفَ القصّة من أوّلها إلى آخرها
في لحظةِ حنينٍ واحدة.

دَعِ التيّارَ يأخذ ما يُريد. دعني أبقَ في مكاني.
اعطني هذه اللحظة، ودَعني.
أريدُ أن أسمعَ القصّة.

أوقات

(أغنية سومريّ عاشَ ألفَ عام)

من قَبل، أوقاتٌ كهذه
جاءت من قبل. أوقاتٌ عرفنا فيها
أعاصيرَ لا تكفّ عن اقتلاع الأشجار
من جذورها: الغِرْيَن يدفقُ فائراً، والطين

ينجرفُ إلى آخر الأفق، ويغطّي الآثار.

أيّامٌ كهذه، عرفناها
عندما يأتي كلّ نهار لكي يَلجَ العيون، غريبَ
الشمس
هذا إذا ما أتانا...

عندما كنّا نأملُ، في آخر مرّة
كتَبَ البرقُ فيها أسماءَنا على
ألواح المصير، أن نحثو حَفنةً من تُراب
على وجه الميّت في آخر الرحلة
وخُيّلَ لنا أننا تعلّمنا كيفَ نسلكُ الطريق

إلى بوّابة الآلهة

كيف نحملُ العبء، وننهضُ بعد الطوفان.

كيفَ نمضي، مرّةً أخرى
إذا ما جاءتنا أيّامٌ عرفنا فيها أعاصيرَ
لاتكفّ عن اقتلاع الأشجار من جذورها

عندما يَدفقُ الغِرينُ فائراً، والطين
ينجرفُ إلى آخر الأفق،
ويغطّي الآثار.

أم آشور تنزل ليلاً إلى البئر

وكيفَ حالُ أُمّ آشور . . .
سألتُ أهلي حينما زرْتُ مدينتي المهَدَّمة
الموشَّحة بدُخنة الحروب، بعدَ سنواتٍ طويلة
من الغياب . . . أينَ أُمُّ آشور التي كانت مُرضعتي
بصدرها الأرحَب من هذه الدُنيا
ووجهها، إلهي
الذي بَرَتْ ملامحَهُ المذابحُ والكوارث حتى اكتسى
بتلك الهالة، حتى تقدّستِ العينان؟
خَبّرني، يا عَمّانوئيل، أيّها الصديق
عن أمّ آشور: أينَ هيَ، كيفَ تقضي
أوقاتَها؟ خبّرني يا عمّانوئيل، أيّها الصديق
عن عزيزتنا أمّ آشور . . .
تقصدُ عمّتي، أختَ أبي الكبرى
أمَّ آشور؟ هي ذات العينين الحزينتين
مُذ كانت طفلةً، حتى قيلَ أنّها سيّدةُ الأحزان السبعة
تحكي لنا عن هروبِ أهليها عَبْرَ البراري

عن الأطفالِ تحتَ سنابك الخيول؟
هي التي كانت تطردنا بالحجارة كلّما
سرَقنا طماطمَها الصغيرة
لكنّها تُحاذرُ أن تُصيبنا، ولا تُصيب
سوى سياج البُستان؟
أُمُّ آشور، عمّتي، أُختُ أبي الكبرى
ومُرضعتكَ الفاضلة أيّها الصديق
ذات الصدر الأرحب من هذه الدنيا
والوجه الذي بَرَتْ ملامحهُ المذابحُ والكوارث
وموتُ الأحبّة، وفراقُ الأبناء
حتى اكتسى بتلك الهالة
حتى تقدّستِ العينان. . .تعالَ الليلة
لأُريكَ أمَّ آشور، تعالَ معي أيّها الصديق
لنزورَها عندما تنزلُ ليلاً إلى البئر.
تقولُ أنّ الأرواح تُناديها شاكيةً
من أبعَد الأماكن لتنزلَ إلى البئر
وتُواسي أمواتَها، مُنذُ ذلك اليوم الأسوَد
يومَ جاؤوها بآشور.
حينما سَجّوهُ بين يَديها، صاحَت من الأعماق:
إلهي

مَن ينزعُ هذه الشوكةَ السوداء من قلبيَ الآن؟
سمعناها، وأحْنَينا الرؤوس، وماذا
سيرفعُها بعدَ الآن؟
تعالَ الليلة
لأُريكَ أمَّ آشور، تعالَ معي
أيّها الصديق
لنزورَها
عندما تنزلُ ليلاً إلى البئر.

جنّاز قصير في الطريق إلى مَأتَم

البَحثُ على طول الطريق
عن شيءٍ أقولهُ قد يَليقُ بالمَقام. إلهي!
ما من كلمةٍ، فيها نَزْفُ حكمةٍ، حتى لو كانت بسيطة.

ما معنى الحِداد؟
الميّتُ في تابوتِهِ لا يُطالبُ بالبلاغة.
الأيدي في فَيء السطيحة تَهشُّ ذبابَ الصيف العنيد.

وماذا يقولُ المرء عندما يموتُ في مكانه الآخَر؟
الآخرُ الذي من أجلهِ، إنّما، جئنا لنشربَ قهوتَنا المُرّة؟

على العتَبة أحذيةُ النُدّاب، وجوهُ المُعزّين تُزيّنُ فراغَ الصالة.
وأنتَ، أيّها الميّت، ترقدُ بكلّ بساطة
على ظَهرك، وتختصرُ الكَون.

كلّ ما أعرفهُ الآن: موكبُ السائرين في دَرب الحداد.
ظلّكَ يطفرُ فوقَ سياج المظالم. وجهُكَ يبدو
في مرآة الهزيمة.

هذا ما أعرفهُ: الموتُ هوَ الموت.
وما من أحَدٍ عادَ من موتهِ ليقولَ لنا شيئاً.

أعرفُ الكلبَ المنفوخَ كقِربةٍ تحتَ سماءٍ خفيضة
والماشيةَ الطافية عندما يأتي بها الفيَضانُ إلى أبواب المدينة.

امرأةٌ رأيناها، ذاتَ مرّة، في الطفولة
فاغرةَ الفَم، مشدوهةَ العينين على طريق المحطّة ـ
شَعرُها المتلبّدُ كنُشارةٍ سوداء، جلدُها المتَرمّدُ في قيظ القيلولة.

لم أستطعْ، في تلك الليلة، أن أنام.
لم نَنسَ أنّ الأجساد ضيّقةُ المصائر. وهكذا نَمَوْنا.
صِرْنا ما صرنا إليه، في الأماكنِ والبُلدان، وأقطار العُزلة:

أفكارُنا الأوّليّة، خامةُ الخَيالات، حَفيفُ أوراقٍ
بائد بينَ الأضرحة، وذلكَ الموتُ الأوّل، جائلاً بلا وَجه
من بابٍ إلى باب، خطوةً بعدَ خطوة.

وغداءُ المرأة الميّتة، طيلةَ الوقت
يَبردُ على الصينيّة، تحتَ منشفةٍ بيضاء، وقلائدُها
ما زالت ترنُّ أحياناً في الدولاب الذي يضمُّ ثيابَ عُرسها.

لكن معَ مضيّ الوقت، تعَلّمتِ الغيابات
كيفَ تتنكّر، مُصَدّيةً أحياناً تلقاءَ حيطانٍ مُصَمّغةٍ

بألفِ ذكرىً وذكرى، وكم من ظلٍّ تَرسّبَ تحتَ جَذر اللسان

حيثُ رَسا مثلَ مَركبِ نُوح لفظةٍ مَنسيّة.
ازدهرَت أفاويهُ البلاد الأولَى فوقَ ألسنةِ نار الطبخ
واضطربَت صُوَرُ الجُثَث الهاربة في أعيُن العُقبان الجاثمة

بانتظارها على خطّ استواء الأفق. هناكَ جئتُ لأكلّمهم
على حافّة الصحراء. إنّهم آبائي يطلبونَ منّي
بكلّ رِفقٍ أن أجلسَ على حافّة القبر

بينما ينسحبُ الضياءُ الأخير من تجاويف المدى...
لا أعرفُ ماذا أفعلُ بهذا الجيب من التراب، مَعْلَمِ الحجارةِ هذا
صخرةً فوقَ صخرة. يُمكنني، في الحُلم

أن أسمَع كيفَ يَحتارون في تَخمينِ معنى
أن تبقى عظامُهم، بيضاء، على السطح، مُعَرَّضةً للشمس
وإفرازات السَّحالي، وإذ يتربّصُ بي واحدٌ منهم

في الليالي - رُبّما على مَدخل بيتنا القديم، أو عند نهاية الطريق
حيثُ يتكاثَفُ مشرَّدونَ حولَ نارٍ تحتَ سور المقبرة
فإنّما ليقولَ لي أنّ الليلَ تجاوَزَ الحدّ

أو أنّ الحَجر سيّدٌ على الخليقة.

أخبار عن لا أحد

مَن لا نسمعُ عنهم خبَراً
من لا يذكرهم أحَدٌ: أيّةُ ريح
ذهبتْ بآثارهم كأنّها لم تكن
أبي، والآخرون - أينَ هُم، أين . . .

*

ماذا حَدثَ لصانع الأسرّة
ودواليب العرائس
كم كانَ يُقدّسُ الخشَب!

*

أين الإسكافيّ الصامت
حاضنُ السندان، ماضغاً مساميرَهُ المُرّة؟

*

هل قَصفوا كهفَهُ المليء بأحذيةٍ قديمة
بإحدى تلك «القنابل الذكيّة»؟

*

أينَ الصَفّار، أينَ صينيّةُ الذهَب؟

❊

سُنبلةُ الحنطة
مَشبوكةً بصورة القدّيس؟
نَعْلُ الحصان
على الباب؟

❊

ماذا حَدث
لأمّ يوسف
القابلة
كم طفلاً باكياً سحبَتْ يداها
من ظلام الرَّحِم الدافئ
إلى عَراء هذه الدُنيا
ليمضوا
تائهينَ في وديانِ
مصائرهم
جُنوداً يُقاتلونَ في حُروبٍ خاسرةٍ
غير عادلة؟

❊

بعدَ أن تَعبوا
منَ الكَدْحِ في طاحونة الفَقْر

ليمَوّنوا أَهْراءَ الطاغية

*

هل خجلوا
من تركيبةِ هذا العالم

*

هل قرفوا من تلك الأكاذيب؟

*

بعد الحروب، بعد الحصارات

*

ما وَراءَ الجوعِ
والأعداء، وبمَأمَنٍ من يَد الجَلاّد

*

هل ذهبوا ليناموا أخيراً؟

*

ليناموا، ويَلتحفوا التُراب.

جئتُ إليك من هناك

نهايةُ العام:
عامُ النهايات
الطقسُ والغربان، ضِيقٌ في نَفَسي
من كثرة التدخين، علّةٌ ما
(وحشةٌ،
قلقٌ،
أَلَمٌ دفين)
أطاحتْ بي لأطوفَ في أنحاء البلدة المقفرة
وأقطعَ حول تلك الزاوية بالذات
حيثُ لاقاني وجهاً لوجه
قبلَ هبوط الليل:
صديقي
القَصّاصُ هوَ بعينهِ
لكنّ شيئاً أفرغَ عينيه من الضياء
صديقي القديمُ الفَكِهُ
هوَ بذاتهِ
لكنّ شيئاً قَلَبَ قَسَماتِهِ
من الداخل: الحواجبُ بيضاء
سوداءُ هي الأسنان

إذا ابتسم (لا فرَحاً) بدا كأنَّهُ يبكي
ما وراءَ الحزن
كما في صورة غير مُحَمَّضة
كما في صورة محترقة
بأقلّ نفخةٍ تنهار. . .
لاقاني وكنا خارجَين من عاصفةٍ
بدأتْ منذُ الأمس
تَجلدُ الجدران بلافتات المطاعم والحوانيت
وتجعلُ أسلاكَ التلغراف
تُوَلولُ حقاً في تلك الساحة الخالية
صرختُ: يا يوسف!
ماذا حدثَ لوجهكَ يا يوسف؟
ماذا فعلوا بعينيكَ يا يوسف
ماذا فعلوا بعينيك وحَقَّ اللّه؟
قال: لا تسألني، أرجوك.
قال: إنّهُ الدمار.
قال: جئتُ إليكَ من هناك.
قال: لا أنا. لا. لستُ أنا.
لا أنت.
لا، لستَ أنت.
هُم، وآلهةُ الزَقّوم.
هُم، وصاحبُ الموت الواقفُ في الباب:
اللاجئونَ على الطُرُقات
الأطفالُ في التوابيت

النساءُ يَندُبنَ في الساحات
أهْلُكَ بخير
يُسَلّمونَ عليك من المقابر
بغدادُ سُنبُلةٌ تشبّثَ بها الجراد
جئتُ إليكَ من هُناك
إنّهُ الدَمار
قالَ لي
وسارَ مُبتعداً، واختفى
في كلّ مكان.

(في ذكرى يوسف الحيدري)

رسّام الأهوار

في حُلمهِ صرخةُ الحصان على أسوار غيرنيكا
عينُهُ المذعورةُ تُفّاحة رازَها البرقُ.

في حلمه عينا المرأة الباكية
في «نصب الحريّة» لجواد سليم.

وهو يُفضّلُ فتاة سلفادور دالي إذ تسلخُ فَروةَ البحر
عن رمال الشاطئ كأنّها منديل
على زَرافاته البلهاء المتراصفة حتى آخر الأفق
تتدلّى من صدورها أدراجٌ مليئة
بألسنة اللهَب...

في الحلم أو في اليقظة
في ساعات طوافه بين المكاتب
بسطلٍ وممسحةٍ، يُلمّعُ البلاطات وهو يُغنّي
أبوذيّةً حزينة، في بُنوك تطنُّ بوحشة ليل التجارة

مُطلاً أحياناً من شرفةٍ ما في مدينةٍ ما
(مدريد، لندن الرطبة كمُخاط بَزّاقة

ديسَتْ تحت القدَم، أو ربّما باريس)
حالماً من يدري بماذا
من يدري بمَن، قبلَ أن
يعودَ ثانيةً
إلى مهمّة التنظيف
بوجومٍ من يدري
أنّهُ أبداً لن يعود إلى الأهوار.

وكلّما قرأ الأخبار

(جاءَ في الأخبار أنّ طيوراً معيّنة في جُزر الهبريدس
بأسكتلندا اعتادت أن تُهاجر في الشتاء إلى منطقة الأهوار
في جنوب العراق منذ آلاف السنين، وجدت منذ بضع سنوات
أنّ الأهوار التي كانت تُشتي فيها، لم يَعُد لها وجود،
فتشرّدَت وضاعت ولا أحد يعلمُ مصيرَها.)

كلّما رَدموا هوراً، كلّما أحرقوا خريطةً
وأزالوا عالماً من الوجود، بدأ يرسمُ محموماً
لوحةً جديدة تستلهمُ الأهوار:
كلَّ جُرّيٍّ، جاموسةٍ، غُراب
كلّ شبكة مَفرودة للصيدِ في الريح
كلّ مشحوفٍ طافٍ كالمهد أو التابوت
على بحرٍ من الغِريَن، في غرفته ذات الكوّة الوحيدة
كزنزانة ناسك، حيث يرسمُ الأهوار

عندما يصطادُ أهلها وَقوفاً في المشاحيف
بالفالة أو بالشِباك
في الشمس، أو على ضوء الفوانيس.

يوميّات من قلعة فيبرسدورف

١

يتحوّلُ آب إلى جَهامة أيلول. وفي رأسي
كالغيوم، ترحلُ الجبال: كُتَلُ الأفكار كثلاجات القُطب
تنتقلُ بضعَ خطوات في كلّ أبديّة.
القريةُ ما زالت تحتفظُ بأسرارها، رابضةً
بين حقولٍ تنبسطُ إلى آخر الأفق، وما زالت في أركانها
بضعُ عجائز يتبادلنَ آخرَ الإشاعات، في الغسق، قريباً من البركة
حيثُ تطفو بجعةٌ وحيدة. أعرفُ البيوت، وحَانتها الغارقة
في دُخان غلايين الريفيّين؛ أُصغي لساعات
إلى أجراس الكنائس العتيقة.

صفَحاتي تطفحُ ليلاً، تتجمّعُ الكلمات مثلَ طيور جارحة
في سماءٍ خافقة بالنُذُر، زمَني طَوعُ يدي، مستعدٌّ للرحلة القادمة.
حُرٌّ في أن أُلامسَ جذرَ المصيبة التي تُطاردني عبرَ أيّامي، من بلدي النائي.
أو أن أتناسى المضائق، وأنطلق صوبَ البحر.

كم من حياةٍ، إلهي، مرّت بي
مُغْولةً، آتيةً من هناك، معصوبةَ العينين لئلا ترى . . .

الشرّ، تلك المطرقة، كم من حياةٍ تسحقُ كلَّ يوم!
كلَّ من لم يعد واقفاً في مكانه تحت الشمس.

٢
الريحُ هنا، شماليّة من القطب
ينشطرُ الطينُ لها في الأراضي المفخورة.
تتقشّفُ لها أيدي الفلاحين. تُقلقُ مَنسوبَ الماءِ في الآبار.
ومن رَهبةِ هُبوبها، تبقى المحاريثُ عاطلةً
في حافّة الحقل، والرفشُ في سُبات.
لو أنّ أحداً تجرّأ على الخروج، فالشتاءُ غرابٌ
أسحَم، يهبُّ في وجهه كعباءةِ أرملة.

ولي مدفأتي، في غرفتي الصغيرة المطلّة
على غابة. أصغي إلى قَرقعة الدَّرفات، إلى
مصاريع النوافذ الموشكة على الإقلاع، فالعواصفُ أليفةً
صارتْ، والإصغاءُ إليها عادة.

لا أنا بالهادئ، البارد الأعصاب
ولا بالمتوجّس، القَلِق، المتوثّبِ على أقلّ خَشخشةٍ ونأمة.
حَفنةً بعد حفنة، يتذرّى العُمر. كأنّهُ الحصاد
والمِذراةُ في اليَد، والريحُ مُقبلةٌ.

تطفَحُ عُزلتي مثلَ جَرّة منسيّة تحت حنفيّة الصمت.
أنا مليءٌ، تقدّمْ، أيّها الظلّ. ادخُلْ إلى بيتي. وانهَبْ ما تشاء.

سرّ المكان

إلى مؤيد الراوي

معنى أن تُغادر. . .
موضوعٌ قد يستغرقُ الأبَد.

أن تُغادرَ المكانَ الذي ألفتَ زواياهُ كأنّها في
خبايا فكركَ انعطافاتُ الحُلم الذي لا يلوي على شيء -
المكانُ الذي سرّهُ أبداً لم يُستَكشَف، لأنهُ صارَ أليفاً وأنتَ
لن تقبلَ إلاّ بما لا تعرفه، قابلاً لما تعرف لكن عارفاً أنّ هناك
شيئاً خبيئاً وراءَ بابك، شيئاً لن تَطالَهُ الأضواءُ التي
لن تعرفَ سرَّها ولن تراها. . .

أن تغادر المكانَ الذي يلتفّ سرّهُ بالأحاجي
لأنّهُ صارَ أليفاً، والأليفُ حينَ يُستَكشفُ يُطّرَحُ جانباً في العادة؛
قد يحدثُ هذا، ذاتَ يوم، عندما تركبُ قطاراً
إلى الريفِ أو المنفى:
أن تجدَ كلَّ طريقٍ، كلّ حقل، كلّ بيت
مغتسلاً برونَقِ بهاءٍ ليسَ سوى بعضاً من تَرَنُّقهِ
في مرآة الترَف: اللونُ، والشكلُ، زوايا التظليل، إطارُ المُتعة

الباذخة في العين ـ حصانٌ يَرعى في المخيّلة.
جسرٌ يتجسدُ فوقَ ضفتين، حيثُ لا نهر، وثمّةُ شيء
يتحرّكُ في البُعد، ما وراءَ النظر
لكنك ترى في غفلةٍ
ظلّهُ العابر.

وإذ تعبرُ بالبركة (في أيّةِ قرية!)
وتحجزُ في نظرتك الماءَ الساكن، وباحاتِ البيوت
والقاربَ المقيَّدَ بالحبل
إلى رصيف المرفأ، وتفكّر، ولا تدري أنّكَ فكّرت إلا فيما بعد:
«كم ساكنٌ هذا الظلّ وأسوَدُ في الماء»
فإنّكَ تُدركُ، في الحال، أنّ المرأة الملفّعة بعباءةٍ
سوداء في الحديقة، تبكي لأنّ أحَدهم أجبرَها
على أن تقبلَ بالحقيقة.

ولستَ متأكّداً إن كانَ هذا جزءاً من الحلم، أو شهادةً
سمعتَ تفاصيلَها ذاتَ مرّة
لكنك تدري أنّ ما جاهدتَ أن تدريه في تلك اللحظة
شيءٌ يمكنُ لكَ الآن، في عمركَ هذا، أن تعرفه أكثر
لأنّ الخليقة وضعتكَ في هذا المَوضع بالذات
حيثُ ترى، وتمتلكُ الرؤية.

إنّكَ آنذاك، حينَ يتقمّصكَ الوضوح، وتكونُ في
حالٍ من فرط انجلائها، أنكَ لا تفكّرُ حتى بأن تفكّر:

آنذاك قد يحدثُ أن تحدُسَ السرَّ الذي لم تُستَكشَفْ طواياهُ
في المكان الذي غادرتَهُ، ذلك الشيء الخبيء ما وراءَ أستارٍ وأبوابِ
ذلك الشيء الذي لن تَطالهُ الأنوارُ التي رأيتَها في مَنامك.
تلك التي لم ترَها سوى في مَنامك.

الجوهرة

في هذا الوقت يَنزاحُ النورُ عن سور الحديقة
وشاحاً مُخَرَّماً نَضَتهُ عنها امرأةٌ
أحرقت كتفيها الشمس.

تمدُّ الأشجار أعناقَها لتمسّ الضوء
بأوراقها العُليا، وتبدو السماءُ أشدّ عُمقاً وزُرقة.

في هذا الوقت بالذات
يَنهارُ هَرَمُ الألغاز بهَبّة خفيّة من أضعَف النسائم، وأرمي
بأوراقي إلى دُوّامة الغسق المغتلي في قلبي
بوعودٍ لا أعودُ قادراً على اكتنازها

تاركاً للكلمات وحدَها
أن تربُضَ، مُحَبَّرةً، على الورَق
نُذُراً من عاصفةٍ لم تكتمل، أرغفةً للصمت
الآتي من مجاعاته القديمة بشَهيّتِهِ الغَوريّة الأبعاد.

أتركُ لهُ بدءاً من خرابِ نَمرود
حتى النظرة البلهاء لسيّد القَرن الحادي والعشرين

حجَرَ الرَّحى لسَحقِ زهرةٍ واحدة!

وأريدُها لي
هذه الفُسحة بينَ نهارٍ وليل
شِقَّ الولادة قبلَ التئامهِ، ظِفرَ الإله المكسور، قَلاّمةً
تُسافرُ في لحم خليقته الضعيفة.

وها هوَ، لا كالظلّ، ليسَ حتّى إنساناً، لا أحداً
هذا الزائرُ الفَضفاضُ بالمعنى

ريشُ القَطا منتفضاً في مكيدة الصيّاد

عندما تسقطُ الأشياء في اثلامها المرسومة محرومةً من أيّ صَدى
كما تسقطُ، من يَد المبغوتِ بطعنةٍ، على
قطعة المُخمَل السوداءِ، جوهرة.

محلولةٌ، سَلفاً، كلّ الأحاجي

كلُّ الطُرقات
مفتوحةٌ أمامي، كلّ الأحاجي
محلولةٌ سَلفاً؛ طَرقةٌ على الباب، ويَنفتحُ. . .

الليلُ، للنهارِ، زَوجة.

ومعَ ذلكَ، ففي نَهر الدَمِ أخوضُ، ولن ألقى البوّابة
أو أدخُلَ ليلاً إلى المدينة
في مِهرجانٍ من نُباح الكلاب.

وما هي إلاّ نبضة في صَدغ القصيدة
تطرقُ من أجليَ باباً، تسمحُ لي بالدخول.
وها هي المسألة:

أيَّ عُلقمٍ أشربُ، أيَّ إيقاعٍ أتبعُ حتّى
أتحاشى الجنون. . .
سوى هذه الكلبة
التي تُغطّي الأفقَ بعوائها، سائحةً
في خيالاتي، قائلةً للدُنيا أنها تعرفُ أسراري

مَهما نزفتُ من دَمي، أو تلَفّظتُ بهذا الزَّبَد
مَهْما، ومَهما...

٢

منذ آدم

I

سرّ الكلمات

ما يُمكنُ للكلمات أن تفعلهُ
يكادُ يكونُ لا شيء في هذه الأيّام

نغمةٌ ليس فيها ما يكفي من الموسيقى
لكي يرقُص على إيقاعها أحَد.

إذن كيفَ لنا أن نُبجّلَ ذكراها
أو أن نُكيلَ لها المديح؟

معَ أنّني رأيتُ
من ترنّحَ عندَ سماعها كأنّهُ سكران

واختارَ طريقاً أخرى
يسلكها في حياته، وانطلقَ في سبيلِهِ

ذاك، دونَ أن يأبهَ بشيء، ليقبض على السرّ
الذي أطلقتْ سراحَهُ الكلمات.

رأيتُك: كنتَ أنتَ الماشي في تلك الطريق
وإذا لم تكن، فأنا، وحديَ، من كان.

عالم لا يُضاهى

بقايا النور في الغسَق: كتاباتٌ
تُلقي بها الأوراقُ على سجّادة العُشب.

الشجرة، في الخفاء، تلدُ الظلالَ وترعاها
حتّى كأنّ القراءة ممكنةٌ لمن يتفرّسُ يوماً بعد آخر
في نصّ النور والظلّ

بينما عجلاتُ الوقت
تنحدرُ على الطريق
أينما كانت تؤدّي، غيرَ آبهةٍ بمن يقفُ هنا
مشدوهاً وحائراً، شاعراً بالبرد
يبدأُ في الحديقة
غالقاً بابهُ الزجاجي، كما بالأمس
ذاهباً إلى السرير
فاتحاً كتابَهُ المضجر، حالماً بعالمٍ لا يُضاهى.

قارئ الليل

أخيراً يُقَيَّضُ للسكينة
أن تفرشَ خيمتَها على أرض الجسَد كأنّها بُستان

حتى السماءُ تُبطئُ حركاتها
الفَلكيّة، وتُطلعُ بضعَ نَجماتٍ ساحرة.

الغسَقُ ملكٌ أقتَم، موكبُه يرتدي السواد
مع لمعةٍ من ذهَبٍ هنا، أو خيط فضّةٍ هناك.

هكذا يبسّطُ الليلُ تعقيدات الخليقة
كما تمسحُ يدُ العاشقة تجاعيدَ وجهِ قَطّبتهُ الأحزان

ويَقلبُ صفحةً أخرى في كتابي
كأنّهُ هوَ القارئُ
لا أنا.

رجل مريض بالقلب يتنزّه على الشاطئ

أمشي
كلّ يوم إلى البحر.

بحرٌ في القاع يجرشُ العظامَ والحَصى
وبين حينٍ وآخر يلبطُ الساحل: هوَ أيضاً يخضعُ لإيقاعٍ رتيب

وهكذا يقذفُ الموجُ قطعةً من الصَّلصال، مشبوكةً بأصدافٍ ودُروعِ سراطين
أو جزمةَ بَحّار مليئة بالرمل. جُثّة يجدونَها غداً تلطمُ الحجارة
وفَيضٌ من العصائر يَرشَحُ من فَمها الفالت.

في محجَريها أسرابٌ من البعوض الطنّان صعّادةً ونازلة
على خَفْق الموجة.

لم يكن لي وأنا الماشي
على الرمل، في نزهة النقاهة، ذاتَ لحظة سوداء
حينَ تجمّدت عقاربُ ساعتي السويسريّة (اشتريتُها في مطار زيوريخ بالذات)
على الساعة الثالثة، سوى أن أرمي بها إلى البحر.

إليهِ بالزمَن الميّت، بأيّام التردّي
بهيكل الماضي
ذلك القارب المليء بالظلال: خُذهُ، أيها البحر
الذي لا يشبع، إنّهُ لك. الحلقاتُ التي سيصنعُها على مائك
لن تصل إلى شاطئك الآخر.

والزمنُ المقذوفُ من يدي، ليس لأحدٍ سواي.

أنا الآتي إلى هذا الشاطئ المقفر
لأصفّي المُكدّرات المزدحمة في رأسي لساعةٍ أو أكثر
سأمشي على الجسر الخشبيّ المتآكل الأعمدة
في الرذاذ المتطاير من الأمواج، بين صرخات النوارس الجائعة.

صيّادٌ يسحبُ صنّارتهُ من اللُّجّة وفي نهايتها سمكة
تَرعُفُ راعدةً بجسمها الفتّان في الغسق.
هديرُ البحر يعلو، ولا أحدٌ يسمعُ أحداً، هذا إذا ما تكلّمَ هذا الأحدُ!

الجسرُ ينتهي في فراغ البحر
دونَ أن يؤدّي إلى شاطئ. الصيّادُ حقيقيّ، خيطُ صنّارته
مشدودٌ إلى الماء، وفي سَطله سمكةٌ ترقصُ رقصتها الأخيرة.

أمّا أنا، فأتركُ للضباب الزاحف من نهاية الأفق، من رئة المحيط الهادي
أن يُغَلّفني مثلَ رسالة.

زائر من البحر

حيوانٌ آتٍ من البحر
أعماهُ ضوءُ مصباحي
في ليل الأزمنة الأعمق من هذا الزمن
براثنهُ تُخدّشُ بابي.

«أنتَ، يا من أصلُهُ منّي، افتَحْ.
كلانا من نفس الطينةِ جاء.
فرائي البارِدُ، وجلدي. شوقي الذي دعاني
لآتي إليك...
هذه بوصلتي
أنا الدودة الساعية بأنفيَ الحسّاس في ظلام الرؤية.
هذا الحدُّ، أو هذه الربوة، وإلا فهذا
المَدخَل، حبّ الدخول إلى
جَنّة السلامة.

من منّا هو الضائعُ في الظلمة؟
أيّ عالم هذا الذي نتطوّحُ فيه
والثلجُ يملأ فرائي
تحتَ نجوم المجرّة؟
وأنتَ، أنتَ أيضاً

كنتَ مثلي، ذاتَ يوم، حيواناً طالعاً من البحر.

وها أنا واقفٌ على عتبة بابك.
افتَحْ.
لنترك هذا المكان
ونذهب إلى مدىً آخر».

هل كنتُ أهذي، أرى فيلماً رديئاً، أم أحلمُ حُلمَ البداية؟

أمَلْتُ رأسي على إفريز النافذة
وكنتُ أسكنُ كوخاً على الشاطئ
مبتئساً من حَصادِ نهايةِ عامي
يائساً من كتاباتي وأيّامي
من سريريَ الموحش، وأوراقي الملطّخة
بثُفالة القهوة والخمر.

ذهبتُ لأفتح الباب.
لا أحد في الخارج سوى ظلّ طويل، يعلو
ويهبط، ويخفقُ مثلَ خرقةٍ سوداء
مع الموجة.

الحياة على حافّة زلزال

أعيشُ على حافّة شِقّ الزلازل المسمّى:
أخدود القدّيس أندرياس. . .
يا لهُ من قدّيس!
يتخاطَفُ، بين آونةٍ وأخرى
تحتَ أساساتِ بيتي
فيرتَجُّ لهُ
البيتُ.

بيتي،
عبرَ خلفيّات الحديقة
صغيرٌ، على وَقْعِ تلّة الإنحدارات
نحو البحر.

ذاتَ يوم سأقولُ لأمواجه:
سوف أطفو فيكَ على قُفَّتي أيّها المحيط الهادي
وبضعةُ من كتُبي المفضّلة
مَحمولةٌ على ظهري
عائداً من جديد إلى قصّة الطوفان!
أنا من يَشقى
ليوحّدَ الشقّين، في

أحلامه، بين الزلازلِ والسكينة.

بعمودي الفقَريّ إن لزمَ الأمر، أُسندُ
انزياحةَ التَشَقّق الأرضيّ الذي ستشاؤهُ الطبيعة.
أو تتهجّاهُ ألواحُ المصير.

كنتُ أمشي، في الأماسي، وبيتي
يتكدّرُ من الأنباء
والتوقُّعات
والتوجّسات والنذائر
تكادُ حجارتُه أن تشيخ في وجه
الإنهيارات المقبلة.

كنتُ أمشي لأنظرَ إلى
المشهد التالي. وأشهدَ للغرابة.

عندما جئتُ إلى هذا المكان
كنتُ أحلم بأنّ كلّ شيء في انتظاري:

الطبيعة بكلّ بهائها، رفوفٌ عَلتْها كتُبي.
أسماءُ حيّةٌ تجتاحني. ذلك المعنى
الذي سأقولهُ، أنا
وحدي.

هكذا فكّرت، أنا البريء
الأكثرُ خضرةً من أعشاب والت ويتمان
في حديقة السذاجة.

كانَ ذلك منذُ وقتٍ سحيق
مَرّ في رَمشةِ عين. واليومَ أعرفُ
أنّني حقّاً أعيشُ على
حافّةِ زلزال.

II

لا شيء منذ آدم

مقطوعةٌ من الجذرِ هذه الأنشودة.
هذا الفيضُ من الدُعاءِ ليلاً، وإلى مَن هوَ مَرفوعٌ؟
تنزلُ الفأسُ، وما من حطّاب.

لا الغابة بل الشجرة، وحدَها، تتلقّى الضربة.

في غَور البُستان تتلعثمُ الظلمة
تعلوها سماءٌ مستورةٌ بصوفِ
من غَزْل النجوم، فوقي، أنا المتعرّي من هذا
القميص، ولستُ حتّى يوسف.

تذهبُ الأغاني، تجيءُ المراثي.
لا شيءَ منذُ آدم غيرُ ملحمة التراب.

السماءُ تحتضنُ غيمتَها اليتيمة
والليلُ يقبلُ أن تُرضّعهُ ألفُ نجمة.

حلم الفراشة

الفَراشة التي تطير كأنّها
مقيّدة بخيطٍ خفيّ إلى الجنّة
كادت تمسُّ ذقني وأنا جالسٌ في الحديقة
أشربُ قهوتي الأولى
نافضاً من رأسي كوابيسَ الليلة الماضية
متململاً في الشمس...
رأيتها تعبرُ فوقَ سياج الخشب
كأنها حلمٌ أو صلاة، هي التي كانت
دودةَ قَزٍّ بالأمس، سجينةً
في شرنقتها الضيّقة.

معنى صَلاتي

هذا ربّما
ما صلّيتُ من أجلهِ
أحياناً، هذا ما رأيتهُ في لحَظاتِ يأسي
مغمضاً عينيّ إلى النصف
أرِقاً حتى الفجر.

تلك الحديقة
(أوراقُها منذ الطفولة
ما زالت تتألّقُ في غسيل الظُهر، شمسٍ
لم تعُدْ تُرى.) بضعُ شُجيرات.
زمانٌ لم تُلطّخهُ
يدُ الأيام.

والصيفُ كثيفٌ بالنَحل
ولا نأمة عن هذه البلاد الباردة
لا خبَرٌ عن الشمال الذي سيغطّي الأشياء
بظلّه البارد، رغمَ أنّ لي ناراً
ومصباحي يُطلُّ على صفحةٍ بيضاء
تبقى بانتظارِ أبياتي القليلة

(لن تاتي إلا إذا انتهى
هذا الليل.)

دفتري المفتوح تحتَ عينيّ
مصْيَدةٌ لأرواحِ مَوتايَ
يمرّونَ على صَفَحاتهِ في شبه رفيف
أسمعهُ مثل لغتي الأولى
في باطنِ أيّ ماضٍ لن يتركَ للبطَلِ أن
ينام، هو الذي يعرفُ أنّه لن
يكونَ جلجامش

هو الذي يرفضُ المهمّة:
هذه الصفحةُ الليليّة ستكفيه ليمشي
إلى نهاية الحلم، ومليونُ لاجئٍ يَلبُدُ في خُطاه

نرفعهُ عندما بسقطُ، ندلّهُ
إلى ظلّ الحديقة.

كلّ ما نحلمُ به
ألا تعصفَ بنا هذه الأعاصير:
زاويةٌ ننامُ فيها، صفحةٌ بيضاء
حيثُ لا تكذبُ الكلمات.

هذا ما صلّيتُ من أجله الليلة، ولم أعرف معنى صَلاتي.

موكب أصوات

في الصمت المطبق
أصغي إلى أيّ صوت:
شيءٌ يسقطُ كتُفّاحة نيوتن
في حضن الظلام. هِرٌّ يشكو من البرد.
من الجوعِ إلى أُنثى.
أنينُ الثلاجة القديمة.

أمامَ بيتي
تُفرقعُ بلّورات الصقيع
بين حينٍ وآخر كأنّ الغابة في نومها العميق
تمطُّ أضلاعَها الألف

هُنا يتفتّحُ الزمانُ ببطء زَهرة

تنضحُ الطبيعةُ كحائضٍ في قارورةِ
الطقس، تندرجُ الخفايا خلسةً
في مَساربها الخفيّة

يتكسّرُ غُصنٌ
أسمعُ حمولتَهُ الخفيفة من الثلج

تضربُ سجّادةَ الأوراق
كدَفٍّ أصَمّ.

في مكانٍ ما، تَنعبُ بومة.

مخروطٌ تائهٌ من الأصوات
يُلولبُ دائباً داخلَ العتمة
حتى يأتيني هديرُ الشاحنات
على الطريق السيّار
تحملُ السمْنَ والعسَل إلى المدينة
تحملُ الذبائحَ والقرابين
من المسالخ إلى
الأسواق

ليسَ بعيداً عن مكاني
حيثُ أستلقي مغمضَ العينين
وأطفو في سريري قُبيلَ الفجر
قبلَ أن يشحبَ الأفق، وتنسحبَ فلولُ الأموات
عائدةً إلى جحورها الأبديّة

مُلقيةً وراءَها على عالم الأحياء نظرةً أخيرة

في هذه القرية التي انتهيتُ إليها
طامعاً بحَفنةٍ من سلامٍ، بشيءٍ من السكينة.

في هذه القرية التي بَرَتْها
ريحُ الشَمالِ بأبرَد المخالب
تحتشدُ الأصواتُ كأنّهُ يومُ الحَشْر

وأتبعُ المواكب
في طريقها إلى القيامة.

إذا عاشت الكلمات

سيّدُ البيع والشراء
يكبو على ركبتيه بسكتةٍ قلبيّة في
سوق المضاربات، لكنّ طاحونة المال

مسعورةٌ، لا تكفّ عن الدوَران
وفي كلّ دورةٍ، يسقطُ تاريخٌ، يعلو حصار.

أنتَ، بالكاد تنام؛ شاعرٌ، صفحةٌ بيضاء.

الليلُ أقلُّ ليلاً
الصمتُ أغنى بما فيهِ
وحتّى الموتُ في كمال افتقارهِ إلى المعنى

رُبّما عَنى، في الآخِرِ، شيئاً
إذا عاشت الكلمات: من أجلها نقتلُ ونموت

ونرتوي، من ظمأٍ، في صحاراها
ونغتني من فَقرها العجيب...

للكلماتِ جَبَروت ـ

قُلْ : **شيطان**
ويُغمى من الرعبِ على اليَزيدي.

قُل : **اللّه**
وانظُر كيفَ تشتعلُ النيران.

الكوّة

إذا لم تفتح الكوّة
لن تطيرَ إلى غرفتك الحمامة.

الماءُ يجهلُ أسبابَ الظمأ الأخير
والأرضُ تتشقّق رغم البراهين الدامغة على وفرة الماء.

الصمتُ لن ينفتحَ بين أصابعك كالصَّدَفة
إذا لم تعرف كيفَ تولَدُ الوردةُ أو تموت.

حتى تأتي القصيدة، كُن أكثرَ صمتاً. انتَظر البرابرة.
استنطق الأشياء. تكلّمْ عن الحجارة.

قَلَمٌ على المائدة، دفترٌ كمروحة الغيشا
يُرفرفُ في خيال الورّاق.

القصيدةُ قد تضيع، إذا لم تجد الخيطَ الخفيّ.

والراوي لن يعرفَ القصّة.

١

في وسط كلّ شيء، حجَر

كانَ شاعرُ إيرلندا
وليم بطلر ييتس
هو الذي اكتشف ذاتَ يوم
أنّ في وسَط الأشياءِ كلّها، حجَراً:
أنّ «**كلّ شيء تغيّرَ، تغيّر بمُطلقهِ**»
وأنّ «**جَمالاً مُرعباً**
قد وُلد».

إنّهُ الفُصحُ
في عامِ ألفَين، بعدَ الذي
صارَ، بعد الذي كان ـ أصبحَ هذا
الذي نحنُ فيه، وجهَ هذا
الزمان السَّفيه.

تلكّأ قليلاً، توَقّفْ هنا
بعدَ أن عبَرتْ في طريق

الحرير القوافلُ، بعد البرابرةِ ـ الصَّلبِ ـ روما
وكم مرّةً!

«كلماتٌ مهذَّبةٌ دونَ معنى»

بعد أن خلطَ الغَدُ أوراقَهُ
بيدَيّ خبيرٍ، لتسقطَ مملكةٌ وهي واقفةٌ
أو تُشَيَّدُ أخرى على أنقاضها، بقرارٍ من الربّ
أو جنَرالٍ صغيرٍ يقومُ مقامَهُ
في حَلبة الرُعبِ ـ
جاءت مُسوخٌ مرَصَّعةٌ
بعيون الزجاج، بأزرارِ لوحةِ كومبيوترٍ.
وأتاكَ الغريبُ...

أتى أبعَدُ الأقرباء ليشربَ قهوتَهُ
مُرّةً، في المناحة. صمتُ الجنازات. لا أحَدٌ.

إنّهُ الخوفُ
جاءَ ليرقصَ رقصتَهُ
في الظلام، وحيثُ سيعلو السياجُ
وتنضجُ تُفَّاحةُ البرقِ، تعرفُ أنّ الرؤوسَ
تدلّتْ، وحانَ القُطافُ.

أتخافُ
وأنتَ الذي حاكَها من كوابيسهِ

ورُؤاهُ، وقوعَكَ في «هذه» الشبَكة؟
أنتَ صانعُها. اليومَ. بالأمسِ. أنتَ
لأنّكَ وحدَكَ حقّاً، ووحدَك
حسبَ اتّفاقكَ، أنتَ
ووجْدَك.

قُلتَ لنا: إنّها، وحدَها، المعركة.

(لم أكُن أبحثُ عن شعر
بعد أن ذبَحوا الصوت
وطاردوا الصدى
كنتُ أريدُ قصيدةً
في بَطنها حَجَرٌ
لن تَلد
وليست حتى مولودة)

ثمّ كيفَ تُتَرجمُ هذا
Too long a sacrifice
Can make a stone of the heart
إلى لغة البُكم والصُمّ في أرضِ ديزني؟

ومن أينَ
تبدأُ قصّةَ وَجدكَ هذا
بأيّ تواريخَ منسيّةٍ (من يؤرّخُ، ماذا؟)

كنتُ في الحلم
أصعَدُ هذا الدرَج
في نهايتهِ فتحةٌ كفَم البئرِ
تطفو بداخلها غيمةٌ
من وجوهٍ، تقاسيمُها حُرّةٌ كالدخانِ
تَسيحُ، وتَغلي
ولا تستقرُّ، هناكَ
بأعلى الدرَج.

*

وثَمّةَ وجهٍ
رأوهُ ينزفُ في السُّحُب.
كم من قائلٍ قالَ قَولتَهُ، ولم يسمعهُ أحَد.
كم من راءٍ رأى
ما رآه.

هل كنتُ أنا من يحلمُ كلَّ ليلة
بمَن يسيرُ، صُبحاً، إلى مصيره المحتوم؟
هل كنتُ أنا
من يُفَرّقُ بين الشَعرةِ والشعرة
يُميّزُ النفَسَ من الرمَق الأخير؟ أعرف:
في قلبِ إيرلندا
سَوادٌ، يَغرفُ منهُ ييتس
يغرفُ منهُ بكلتا يديه، كبُحيرة إنيسفري.

دع هذه المدينة
تسقط في هوّة أيّامها، وأنا
وأنت، نتطوّح في شارع القصيدة العَزلاء، سُكارى

دَعهُ ينحلُّ، تاريخك
الحالك الوجه ـ
دع كُرةَ الخيط تسقط من يَد غازلةٍ
نعستْ، ثمّ نامت
على حافّة
القبرِ.

قُل:
كلُّ من قلبُهُ حجرٌ
قامَ من قبره اليومَ (أو لم يَقُمْ أحَدٌ.)

أنتَ، أيضاً، رأيتَ
الوجوهَ الشفيفة عند انسدال المساء
(وأيُّ مصائرَ منسوجةٌ حولها) وعبرتَ بإيماءةٍ.

دعهُ يشرب ما شاءَ
من دمكَ الحلوِ، حتّى يَطيحَ، ودعهُ يَسيحُ
ويهذي، ولا يستتبُّ، هناكَ على حلبة الصمت
حيثُ تدبُّ الوحوشُ...

وقُل: إنني متعَبٌ. سأنامُ.
وقل: سأنامُ، لأنّي تعبتُ. ونَمْ...

وغداً، ألقِمِ البحرَ جِزْيَتَهُ، والقِ في البحر بالشبَكة.

إلى سيّد الوليمة

إذا كنتَ سيّداً، اعطنا شيئاً
من الخبز، قطرةً من الدواء للمرضى
أنتَ الذي تُسمّي نفسكَ سيّداً، اعطِ لمن ساروا
في كلّ هذه الجنازات
للسادرينَ في حلم الفجيعة
هُم الذين تكفيهُم ردّاً على صلاة الكَفاف
غيمةٌ تعبرُ في سماء المقتلة
أو جمجمة طفل خفيفة كقارب من ورَق
من أجل هؤلاء
افرشْ ملاءةً بيضاء
صفحةً في كتاب لم يُسطّرهُ أحَد
مَرَقَ الأوجاع الصافي
شوربةَ الآلام بالثَريد
جُذورَ الأيام الممتدّة
إلى سرداب الفُطر والطحالب
في ظلمة الرأس الدائخ
تحت القَصف
تحت بسطالكَ الضخم
ودَعِ اللحمَ يَنشوي، وجذعَ الخروف

يتقلّب على نار الجشَع الهادئة
حتّى يَحمرّ السِيخُ
في يَدك.
ولتَكن هذه الوليمة
عَجفاءَ كالأبقار السبع
في حُلم فرعون.
دَعها، دعها تَكن........هذه الوليمة.

هنود الآباتشي

يُقالُ أنّ هنودَ الآباتشي
تلك القبيلة التي أُبيدَتْ تماماً
ولم يبقَ منها سوى اسمها الذي أطلقوه
على مروحيّةٍ حَربيّة مشهورة بقُدرتها على الإبادة
كانوا، بعدَ أن صاموا طويلاً وأنهكَ الجوعُ
أجسادَهم، إذا ما سمعوا الأرضَ ترجفُ تحت أقدامهم
وعرفوا أنّ جواميسَ البوفالو قادمةٌ
يمتطونَ خيولهم من دون سرجٍ
وينطلقونَ نحو القطيع.

ما كانَ لمحاربٍ واحدٍ
أن يشدَّ قوسَهُ بما تبقّى لهُ من همّةٍ في يده الضعيفة
ومعَ ذلك
فهوَ يُقَوّقُ سهمَهُ في الوتَر
ويُردي الجاموسَ قتيلاً في القلب.
فهنودُ الآباتشي كانوا يعرفون «الروحَ العظيمة»
عندما تتجلّى أمامَهم، وتدعوهم
إلى المعركة.

وهكذا الشاعر، هو المطَوَّقُ بصيحات القبيلة
حين يجولُ بين الخرائب
ويَرثي أبناءَ مدينتهِ، يحلمُ أحياناً
أن يُحلّقَ كأيّ نَسرٍ فوق رؤوس القتلى والقتَلة
آملاً أن يُجَندلَ بكلماته
مخلوقاً رائعاً مُمعناً في الهَرب
وأن يُنشبَ صنّارةَ خيالهِ
في لحم الفريسة.

هولاكو

(مسلسل جديد)

خُيولي
أخَفُّ من الريح

سنابكها تَقدحُ الشرارات
إذ ندخلُ المدُن

الحربُ تستلقي
كالعروسِ راضخةً بانتظاري

والحتفُ يتكلّمُ باسمي
فأنا هولاكو:

سيفٌ في غِمدهِ لا يستريح.

ظلّهُ أينما ارتمى
يستنسلُ غيمةً من العُقبان الجائعة

تطفو فوق البيوت

حيثُ يراني
اللاجئونَ في
كوابيسهم بين الخرائب

ويَشحذُ الأسرى
حَفنةَ قشّ من حصاني.

سيّد

بقيّةُ شمبانيا
ما زالت تتخثّرُ في كأس
بضعُ فقّاعات ما زالت تموت

حَفلتنا انتهت
عامُنا الأخيرُ اختفى
بين داميس الماضي كأنّهُ ولا كان

على حافّة الكأس
منذُ الآن:
ذبابة.

يقولُ واحدٌ
ليس سوى واحداً يقول:
أوشكَ هذا القَرنُ أن ينتهي
وأينَ وصَلنا؟

ألفا سنةٍ ألا تكفي
ليأتينا سيّدٌ آخر

أقلُّ غباءً وقسوة، أرحَمُ، إن أمْكن

يفتحُ لنا باباً في هذا الجدار
أو على الأقلّ يُرينا من أينَ تبدأ الطريق.

ربّما تَغَيّرنا. غداً سنستريح.

يصيحُ آخرٌ
ليس سوى آخَراً يصيحُ:
لا لا لا لاء!
غداً؟ غداً سنَغتالُ السيّدَ الآخر
الأقلَّ غباءً، وقسوة
الأرحَمَ إن أمكن
إذا جاء.

الجثّة

عَذّبوا الجثّة
حتى طَلعَ الفجرُ مُنهَكاً وقامَ الديكُ يحتجّ.
غرسوا في لحمها السنانير. جَلدوها بأسلاك الكهرباء.
علَّقوها من المروَحة.

عندما تعبَ الجلاّدونَ أخيراً
واستراحوا، حرّكت الجثّة إصبعَها الصغير
فتحتْ عينيها الجريحتين
وتمتمَت شيئاً.

هل كانت تطلبُ ماءً؟ هل كانت تُريدُ خبزاً يا تُرى؟
هل كانت تلعنهم أم تُطالبُ بالمزيد؟

ماذا كانت الجثّة تريد.

٢

حلم البيوت

هناكَ ثمّة، في مكانٍ ما
شارعٌ تتراصفُ فيه بيوتٌ
غسلتها الذاكرة، في بياضها الكلسيّ، سقفاً بعد آخر
أتنقّلُ فيها، كأنني ليليٌّ في مَهبّي، صانعاً أدراجاً من كلماتي
أصواتاً أكثر خفوتاً من أن يسمعها أحد.

إينانا المبتورةُ اليدين تغزلُ ضبابَ النوم من أجلى هناكـ.
وأنا، الليلة، سيّدٌ على لا أحَد.

مِراراً، في الأحلام، أجدُ البيت. أفتحُ الباب.
كلّ ذلك الآثاث الذي التهمتهُ الأمداء، خارج مَطال الذاكرة
فاقداً أسماءَهُ الأولى.

الساقية، منذ الطفولة، ما زالت تجري
في الحُفَر، وتلك العجوز، نانونتا نانا، تُدلّي
أصابعَ قدَميها، بأظافرها الصفراء، في مائها. نأتي
لندلّها إلى كوخها المتداعي وراءَ النهر
ونُمَشّيها ببطْ، وثوبُها العتيق يخفقُ في الريح، إلى نهاية الحارة.

الأطفال المسحورون والمدينة

إلى فخريّة صالح الراوي

أبوابُ تلك المدينة عاليةٌ
كما لم نَرَ من قبل، جداريّاتُها ملأى بمراكب
تعبرُ إلى بحر، وجهتُها ثمّة موانئ تسطعُ في البعيد.
وفي أطرافها، دوماً، ملكوتٌ
مُخَصَّصٌ لأطفالٍ يَلهونَ بلا رخصةٍ من صاحب الجنّة.
عيونُهم جواهرُ لا تفقهُ معنى البريق.

كالراقصين، يدورُ الأطفالُ في حلقةٍ حولَ بؤرة النشوة
وشَعرهم يَختضُّ في التقائهم بضوء نجمة
تنوسُ عند نهاية الكون، مادّينَ أيديهم نحو أقواسها العالية.
ها هم السعَداء، وكم هم جديرون بالمحبّة!

أرى أطيافَهم في الحلم، بين بقايا مدينتي
وهل هم أكثرُ من أطيافٍ يا تُرى؟ بأحذيةٍ لا تُرى

يركضونَ على أرصفة الليل، وثمّةُ هالة تحيطُ بكلّ بناية.
إنّهم يعطونَ للمدينة ما لا يُعطى
ويقرأون الكتابة المستضيئة على وجه البيوت.

وكالطيور في الصحراء، يُغنّونَ من أجل لا أحد.

الهجرة من آشور إلى بلدان الأشياء الأخيرة

تخطو المرارةُ إلى الأمام كلّما
حَلّت مناسبةٌ للحزن، كمحارب مسلَّح حتى الأسنان
شَلّهُ الإحباط، لكي نطالبَ بالشفاء. . . ربّما؟
مُرغَمين في لحظة الإحراج
بكلّ ما فينا من قوّة اليأس على. . . و. . . في الريح
في الريح المغرَمة بالإقتلاع دوماً، والتي
ليست ودودةً أبداً نتَساند. نتسانَد. لكلّ منّا جدارٌ نُسندُ إليه
ظهرَنا المتعَب. لكلّ منّا حقيبة
فيها صوَرٌ مصفَرّة لبضعة أجداد مُلتَحين حاربوا
في الجبالِ طوابيرَ من الأعداء بلا نهاية
البعضُ ينهار البعضُ يبقى
ويقيسُ حجمَ الإساءة
في وجه التاريخ
الجَهم. .
هذه هي الأغنية التي يُردّدها لنفسه، يُغنّيها للعابرين
في أغرب الأماكن

تاريخنا نحملهُ
في أكياسنا، أيامنا طوفان

يا مركب جدّنا النائي
أوتانا بشتم
يا سفينة سيّدنا نوح
أهذه سماؤنا السابعة
أم أنهُ ليس سوى القاع؟

هذه هي الرقصةُ الفظّة
يرقصها في أحلامه أمامَ سيّد الملكوت
لعلّهُ يسترعي التفافةً عابرة

لأننا عندما نُلوّحُ في وَداع تلك اللحظة
كما يفعلُ المسافر من على ظهر السفينة
لأطولِ ما يمكننا من زمَن
قبلَ أن يتلقّانا البحر
في عناقه الهادر، عندما نحلم بأنّنا نرسو
في بَلد الأشياء الأخيرة
نلتقطُ أسماءَ الشوارع ونعرفُ أشخاصاً عديدين

فنحنُ في نهاية الأمر إنّما نختار
ولأننا اخترنا، نَدّخرُ اسماً ما مثل كنز عائلي دفين:
ليكونَ سدّاً في وجه الزمن

منديلُ الجدّة
الملطّخ بالدم من عصر سنحاريب

سقوطُ بابل
على ظهور بُناتها الصابرين
حفلاتُ البرابرة
القُدامى والجُدَد في خرائب نينوى
وأشجانُ آشور العتيقة
أسرارها التي يُلقي بها المهاجرون إلى البحر
كالفُتات إلى النوارس من ظهر السفينة
في طريقهم إلى أمريكا أو السويد
أو أوستراليا. أو الجنّة.
أو الجحيم.

اللاجئ يحكي

اللاجئ المستغرقُ في سَرد حكايتهِ
لا يُحسّ بالنار عندما تلسعُ أصابعَهُ السيجارة

مُستغرقٌ في دهشةِ أن يكونَ هنا
بعد كلّ تلك الهُناكات: المحطّات والمرافئ
دَوريّاتُ التفتيش، الأوراقُ المزَوَّرة...

مُعلَّقٌ من سلسلة التفاصيل ـ
مصيرِه المحبوكِ كالليّف
في حَلْقاتها الضيّقة
ضِيقَ البلاد التي
تكدّسَت على صدرها الكوابيس.

المهرّبون، مافيات التهجير، لو سألتَني
ربّما كانوا أهوَن، وسماءُ النوارس الجائعة
فوق سفينةٍ معطوبةٍ في اللامكان.

لو سألتني، لقُلت:
الإنتظارُ الأبديّ في دوائر الهجرة

والوجوهُ التي لا تردُّ الإبتسامة مهما ابتسَمْت
ومن قالَ أنها أغلى هديّة!

لو سألتني، لقُلت: بشَرٌ في كلّ مكان.
لقلت: في كلّ مكانٍ، حجارة.

يحكي ويحكي ويحكي
لأنهُ وصَل، لكنّهُ لم يَذُق طعمَ الوصول
ولا يحسّ بالنار عندما تحرقُ أصابعَهُ السيجارة.

نصف بيت

نصفُ بيت

لأبي تمّام: «**ألا ترى**

الأرضَ غَضبى، والحَصى

قَلِقٌ...» ظلّ يتقلّبُ اليوم كالزّبَد الجريح

على ساحلٍ مقفرٍ في رأسي

كأنّ الخليقة

كلّها تصرخُ اليوم

باحثةً عن شَطرها الآخر

وفي غياب القافية

نُصغي إلى هذه الموسيقى

تأتينا من لامكانٍ مثقَلةً بأعجَب الأخبار

أشبَهَ بالأنين، أشبَه بدَردَمةٍ خافتة

لبذورٍ يابسةٍ في يَقطينة

حَرّكتها ريحُ الخَماسين:

كأنني استيقظتُ اليومَ في بيتي

وقد طارَ سقفي

لأرى الغيومَ مُهَرولةً
عبرَ السماءِ تسوقها نُذُرٌ مجهولة
لا أهلَ لي، وليسَ لي بَلدٌ
والأرضُ غضبى
والحَصى قَلقٌ...

القصّة ستُروى

في أعلى المشارف، أو أوطأ الدَّرَكات
هناكَ دائماً راويةٌ، القصّة ستُروى. قصّةُ من يا تُرى: أنا، أم أنت؟
قصّته «هوَ»؟ ستروى. من منظور من: أنت، ملفّقاً قصّتي المليئة بالثغَرات؟
أنا، سارداً حكاياتك المضحكةَ، المُبكية؟ هوَ، الجاهلُ أيّامَ كلينا؟
ستُروى: حتى أسرار القبيلة المخفاة بعنايةٍ في خِرج الزمان المهترئ
تَجدُ الملاذَ أخيراً لكلّ أجنّتها المذعورة في بُنيان الكلمات
بضربةٍ طائشةٍ من القلم، بلثغةٍ من لسان الراوية
لتنهملَ الحكاياتُ من لا شيء
لعالمٍ ليس في النهاية
سوى حكاية
تُقلّمُ أظافرَها، كإلهِ جيمس جويس، بانتظارِ أن. . .تُروى.
ورغمَ أنها مع الأيّام تفقدُ بريقَها، وتبلى
فهي كاسطوانةٍ بلا إبرةٍ ستتلو لنفسها ما تَبَقّى
من تفاصيلها، تلك التفاصيل الجديرة بأن تُتلى ليسمعها من لهُ أُذنان.

٣

طنجة

(في ذكرى محمد شكري)

أضواؤها، في إسبانيا، دعتني
كعِقدٍ ضائع من اللآلئ
لأركبَ سفينةً
اسمُها «ابن بطّوطة»
أقلعتْ بي، من «الجزيرة الخضراء»
في رمضان. والآن، من نافذتي في طنجة
بأعلى الأدراج المسمّاة
«نزلة الإسبان»، أرى سُبّحةً
من الأنوار الغائمة تُسوّرُ جبل طارق.
النزلةُ مائتان ونيّف من الأدراج
حتى تنزلَ إلى البحر ـ
من يدري أيّةُ حوريّة مُجَلبَبة ستصعقني
بآيةِ عينيها الضاريتين هناك!
روائحُ الأرض كلّها أمامي
في صينيّة بائع الأفاويه

وبيّاعُ عِرق السوس بالزنجبيل
يهزُّ في وجهي سُترتَهُ المُجَغْرَفة بأقداح الماء.
آنئذٍ أتذكّرُ كم أنا عطشان!
وأيّ صيفٍ يستيقظُ في كبِدي
وأيّ طيفٍ من الماضي
هوَ هذا الطبّالُ الآتي من آخر الزَنقة
يتبعهُ زمّارٌ وعدّةُ أطفال
كأنّهم يدرونَ أنني واحدٌ منهم
طبلتي الصغيرة تحتَ إبطي تُعلنُ عن أفراحي
المقبلة، وعيدِ أحزاني
أنا الصائمُ الذي سيُفطرُ غداً
أنا الجائعُ الذي سيأكلُ هذا الرغيف
قبلَ أن ينام.

رؤيا في «فندق النصر»

(أزمّور بالمغرب)

إلى صدّوق نور الدين

الشمسُ في الأعلى
طافيةٌ، كبيضة اللقلق، فوق السقوف
ولا أحدَ، في الأسفلِ، يتحرّك:
إنّها القيلولة.

نافذتي تُطلُّ على بُستانٍ أشواكهُ
أعلى من السقوف، امرأةٌ
تنشرُ عليها مَلاءاتٍ، قنابيزَ أطفال. ها هيَ
تخرجُ من بيتها المتواضع، وتأتي
لتلمّ غسيلها. جلاّبَتُها المقلّمة
رايةُ الغسق.

قدَماي
مُجَذَّرتان في هذا السرير
حيثُ ألقيتُ، منذُ يومين، مرساتي.

الفُندقُ يطفو بين يدَي عَرّافة
تُسافرُ في خيمتها الوبَريّة إلى جبال الأطلس
كلَّ ليلة.

عُظاءَةٌ كانت تتسلّقُ ساقَ طاولتي
حيثُ تستقرُّ منفضةٌ، وكأسٌ، وقنّينة
ألقتْ نظرةً غيرَ آبهة
على يدي التي يتصاعدُ منها دُخانُ لُفافة
ومضتْ مثلَ أميرة متغطرسة
في طريقها إلى المنفى.

البُستانُ نائمٌ
تسيلُ على شوكهِ أوّلُ قطَرات النَدى.
نافذتي مفتوحةٌ تستقبلُ حاشيةً من البعوض، وثمّة
من يحملُ فانوساً ويبحثُ عن شيءٍ ما
في الخرابة.

أزمّور... وهذه ليلتي الثالثة.

كمظلّيّ لم تنفَتحْ مظلّتُهُ
تسقطُ في كأسي بَعوضة.

مخدّةٌ تحتَ رأسي
تتكهربُ بالأرَق، فأرمي بها إلى الجدار.

عرّافة أزمّور

إلى عبد الكريم الأزهر

حركةٌ في زُرقة الأبعاد.
نَردُ الحتف المُصَيَّر يسقطُ على
مُخمَل الحاضر؛ بوصلةٌ بشريّةٌ هي العرّافة.

يداها مِحْمَلتان لخواتم الزمرّد والياقوت.
ظهرُها مستقيمٌ مثلَ بوّابة
في قصر أميرٍ من صَنهاجة.
لخيمتها شكلُ طَيفور يطفو متهادياً على وجه الرمل.

تُحدّقُ في يديّ، تتأمّلُ أعمالَ سحرِ
أيامي الفائتة.

وسهمَ مستقبلي الزائغ عن الهدَف.

خلفَ ظهرها البحر
على الطريقِ عرَباتٌ
تجرّها الحمير، مُحَمَّلةٌ بالعوانس والعَذارى

ليركبنَ القوارب حيثُ يلتقي نهرُ أُمّ الربيع بالبحر
وسطَ مَحزَمة البلاد. هُناك
أبحَرَ مولانا بو شعيب
ليلاً في السفينة الآتية بحبيبته عايشة البحريّة من بغداد.
ويُغنّين:
هاك أبو شعيب
في جنب الواد
هاكي يا عائشة
في بغـداد

ضريحُ الوليّ تنقصهُ بضعُ آجرّات
من بلاطٍ أزرق وأحمَر، جدارُهُ الدائريّ تُغطّيه
حتى قُبّته آلافُ الخِرَق من ثيابِ مَن جئنَ هنا
جيلاً بعدَ جيلٍ من العَواقر
يلتمسنَ البرَكات!

حَبّاتُ الكهرَمان في سُبّحة المُقرئ الأعمى
عُقَدٌ مدمّاةٌ لِكَمْ قلبٍ كانَ يخفقُ في أزمّور ذاتَ زمَن!

والعرّافةُ الأريبة، طارفةً بعينها الخضراء
لتطردَ سرّاً غيرَ مرغوبٍ رفرفَ من يدي المفتوحة
هارباً مثلَ غُرابٍ إلى البعيد، تهزُّ الثمَرة
في أعلى أغصانِ الزمن، حجَراً
لهُ سيماءُ الذهَب...

إنها لا تُخبرني
عمّا إذا كانت تعرفُ كلَّ هذا
أم لا، فنحنُ لا نتكلّمُ، لا نقولُ شيئاً
أو نُفصحُ عمّا لا يُقالُ في حَضرة الأبَد.

لحظة الليلة المقمرة «بالجديدة»

إلى جلال الحكماوي

كلّ ما لهُ
أن يقبُضَ على النفَسِ، أن
يُفاجئَ العين بدهشة المنظر
نوعٌ من التحوّلِ، جديرٌ بأعمق الصلاة.

سَجّادةٌ من ضوء القمَر، على حافّة الميناء بالجديدة

فتاةٌ تمشي، حافيةً، تُلصقُ الريح
جَلاّبتَها البليلة بردفيها، وثمّةُ مَركب
يُفرغُ حمولتَهُ الساخنة من فضّة السَّردين
والفُلفل الأحمر، والشمّام المُنَمَّش كجلد أفعى.

الأمسيةُ حريقٌ صاعدٌ حتّى الغيوم المجَمَّرة!

النوتيّةُ أطيافٌ، تلوبُ، تُدخّنُ، تختفي بين الأزقّة.

تختفي في حانةٍ على بابها مصباحٌ ضعيفُ الإضاءة
تتلولَبُ حولهُ أكاليلُ متربةٌ من فراشات الليل.

ومن ذلك المشهد، أيّ خيالات مجنونة
تصاعدتْ كأبخرة الأبديّة في رأسي
عن ضَياع الممالك، عن عبور الرغبة
كمشطٍ من الماء فوق حجَر!

عن الفتاة وشَعر عَانتها الأسود البادي
على شكل مثلَّث من تحتَ ثوبها الرطب...

وعرفتُ أنّ الليالي
مَذاقُ قطرةٍ من العسَل، على اللسان، تتلاشى.

أنّ الأشياءَ، دوماً، مُهَدَّدةٌ بالغياب
وأنني، ذاتَ يوم، كنتُ هنا، في هذا المكان

حيثُ لن أكونَ، أبداً، مرّةً أخرى.

جزيرة الأدراج

(هيدرا، في اليونان)

أيّةُ نوافذ كانت مفتوحةً
لاستقبال هواء البحر المجلوّ كمرآةِ آهة

آتياً من الميناء في أسفل الأدراج
حيث تنطلقُ السنونوات بين صواري السفُن

كمشةً من النُقاط والفَوارز، حَفنةً من الحروف
والكلمات، أطلقها من يده شاعرٌ أعمى

ذاتَ يوم، ليُجبّرَ عظامَ جُملةٍ
ويكشفَ لنا، فجأةً، معناها؟

وأنا الغريبُ النازلُ من أحَد القوارب
إلى بياض الرّخام في اشعّة الشمس

وامرأةٌ تحملُ جَرّتها الملأى
من بئرٍ مسوَّرةٍ بالنرجس، وتصعدُ الدرَج.

إنها تختفي خلفَ باب أزرق، آخذةً في إثرها
الزمانَ والعالم، تاركةً نظرتي اليتيمة

تتلكّأ على وجه الأبله المتهالك على عتبة الكنيسة
يُصلّي من أجل هذه الجزيرة

أو من يدري من أجل من، وماذا...
ويضربُ جبينَهُ بالجدار، مرّةً بعد أخرى.

وأنا الواقفُ في مكاني، حاملاً على ظهري حقيبةَ السفَر
ثمّةُ شيء دعاني، رُبّما تلك النوافذ العالية

لأمضي في طريقي، وأصعدَ الدرَج.

تمتمات من رأس أورفيوس

رجلٌ حاولَ أن يكون العازف
على قيثارة الآلهة
سقطت أصابعهُ في البار بين أقدام العاهرات.

رجلٌ حاولَ أن يلتقط الشوكة
أن يستلّها من جسَد «يوريديس» العاري
سقطَ رأسياً في قُمامة الآلام، سلكَ أقصرَ الطرُقات

إلى الجحيم، فما أحفلَ ليثيه كما سمّاهُ الإغريق
بهذه الأجداث المنسيّة؛ نهَرُ النسيان هذا

مليءٌ بالأصابع الساقطة عن خواتمها...

شطآنُ ليثيه تطفو ليلاً من ملكوت التِّيه.

عليها بضعةُ أطياف ـ
عُشّاقٌ، مَحظيّاتٌ، ملوك
تتلكّأ بانتظار قارب شارون، ثمّ سرعانَ ما تختفي.

كلُّ هذا لأنّ رجلاً حاولَ أن يعزفَ على قيثارة الآلهة
تلك القيثارة التي ليست لها أوتار.

١

يوم ينقصه اليقين

وجَعُ الأيّام هذا، ما تبَقّى
من علائم الطريق، أينَ تدلُّ، من الدليلُ. . .
أتركُ الأخبار، زُبالةَ الأحداث، على صفحة الجريدة
وأخرجُ إلى باحة البيت
حيثُ زرَعت امرأتي أزهارَها الرائعة:
الأقحوان، النرجس، السوسن، عَبّاد الشمس.

أصابعها الخضراء ملأت فضاءَ الحديقة
بأحلامها، والمعجزةُ هيَ هيَ:
خريفٌ لعُشبهِ خضرتهُ السريّة، خريفي الذي يسوقني
كما يشاءُ الزمَنُ المضمَرُ في حتفي.

عندما تكفّ الريحُ عن بثّ شكاواها
وعَزفِ مَراثيها المَوّاءة على أوتار السياج
أبدأ مشيتي المسائية بين الدروب المشَجّرة خلفَ البيت:
هذه الغابةُ الصغيرة حيث تَشطأُ أزهارٌ أجهلُ أسماءَها

وتزحفُ بزّاقاتٌ ذاهلةٌ على المماشي
في أبديّةِ بطئها، بعد المطر.

وحينَ أرجعُ أدراجي بعد ساعة
تكونُ قطعتْ مسافةً أقصرَ من خطوتي الواحدة.
أعرفُ هذا من إفرازاتها الفضيّة المتعرّجة
في نُقاطِ هندسيّة التَقطُّرِ على حجارة الممشى.

سماءٌ محشوّةٌ رماداً، أشجارٌ
أغصانُها مثقَلةٌ بأقماع الندى الموشكةِ دوماً
على السقوط، أوراقُها تحت حذائي
سجّادةٌ رطبةٌ تَنخَضُّ كإسفَنجة.

يومٌ للجهالةِ، لللاعُرفان
لعُرفانِ أنني لا أعرفُ شيئاً، يومٌ ينقصهُ
حتى ظلُّ اليقين، هذا اليومُ المسَمَّرُ في تقويمِ عُمري
على شكل صليبٍ لم يُصلَب عليه أحَد.

صوت أيامي، أزمنة الآخرين

لم نعُد نُحبّ ما كنّا مولّهينَ بهِ.
ما كانَ يُسرّنا، كالرمادِ، على لساننا، يستقرُّ.
لأنهُ الأمس.
نُعانقُ ما كان، ولا نقشعرُّ عندما
نعرفُ أنهُ الماضي، تلك الجثّةُ الأمينة.

للأشياءِ أحتافُها أيضاً،
شُحناتُ انتفاضاتها المحشودة
حتى التكهرُب، وأسرارُها التي تُضاهي
في تَماديها، لغةَ السحابات الهاربة عبرَ سمائي.

هكذا صارت حياتي، أشبهَ بجُغرافيا
لا يمكنُ تفسيرُها بالمواقع، وصوتُ أيامي
لم يعد قابلاً للتبَنّي من قِبَل أزمنة الآخرين.

بينما العالمُ من حولي لا يكفُّ عن ترداد أقانيمه:
الخُلدُ يحلمُ في جُحرهِ المتواضع
من يدري بماذا.
الفَراشةُ في طريقها إلى الجنّة

تَطيشُ عن حدّ السياج.
الكلبُ خلفَهُ، يُفسّرُ إشاراتِ مرور العابرين
بقوانين الرائحة، ووَقْع الحذاء.

وحتى العصافيرُ مشغولةٌ
بتَفْليَةِ ريشها، والحشَراتُ في
أصدافها الهشّة، تتحصّن...

ما من شاحذٍ لسكاكين الأيامِ هنا، يتقدّم
ما من اضطرامِ مفاجئ في قفير النَّحل: ما يحدث ليس سوى
ما يحدَثُ في المعمورة، وما من معنى
لما يحدثُ في حدوثهِ، إلا بالنسبةِ لمن يشهدُ الحدَث.

ومع ذلك، من يريدُ حياةً لها هذه النَّعرة
مُقبِلُها قَبلٌ، أمسُها يومُنا التالي؟
وما غدُها، سوى تلك اللحظة التي لن يسكنها سواك.

أمّا أنا، فاعطني ما تشاء:
كلَّ ما يذوي في لمح البصَر
كلّ ما يُواصلُ المَسْرى رغمَ ظلام ليل العميان.

كوز صنوبر

ينبعثُ الضبابُ من البحر
مثل ستارة عند المساء، يغلّفُ التلالَ القريبة
ويَنفَتلُ فوق السقوف
كشَعر جنيّةٍ هَرمة
تطوفُ بين البشر، ولا تكفّ عن الطواف.

تغرقُ الأشياء في ندىً خفيف
حين أعود من مسيرتي، لساعةٍ، بين الأشجار
المطلّة على المماشي خلفَ البيوت.

الحَصباءُ رطبةٌ تحت أحذيتي
وأرفسُ كوزَ صنوبرٍ أحياناً كأنهُ كُرة قدَم.

ما أوضَحَ أمراسَ حياتي
المقيَّدة إلى سفينةٍ مجهولة لا أدري إلى أين
ستُبحرُ بي، ما أغمَضَ المقصَد حينَ أعودُ إلى البيت
دونَ أن أفهمَ لماذا أنا عائدٌ، ومن قالَ لي
أنّ عليّ أن أسير...

حرَكاتي مبذولةٌ
من أجل إلهٍ أو صنَم، وللنورِ أن يضحكَ في فضائي
للظلامِ أن يتطَوّحَ في مَهاويهِ.

مشاغلُ الآخرينَ في يومهم هذا
يمكنُ لنَبحةِ كلبٍ أن تُبعثرَها كالبيادق
على لوحة شطرَنج مهجورة في حديقة
داهَمتها العاصفة.

لكن كُتبَ عليّ أنا
أن أكونَ السائر، أرى اللوحة
وأرقبُ إسفَنجةَ المعنى
وكيفَ تتشَرّبُ أسماءَ أيامي كأنها، لا أدري كأنها ماذا.

لغة نحيا عبرها

١

لغةٌ نحيا عَبرها
كلَّ ما التزَمنا بإحيائهِ:
فعلٌ، وإذا بهِ بعد فترة
ذكرىً منقوشةٌ في جُدران الذاكرة.

في عالم الضجيج
القاتلِ، نحيا
في كينونة العَصا والجَزرة
كما يريدُ لنا السيّدُ الآتي من وراء الأسوار
هو المُكَنّى بالدَجّال، منذُ أن كان الدَجَلُ لعبةً
تَستَغوِرُ فظاعةَ الرؤيا...

رغابُنا هي الشجرة
حين تلتهبُ ليأتيها
من ليسَ مثلهُ
يَتشوّفُ نيرانَ النبوءة الحارقة.

والغيابُ لا يَدّعي الصوَر، والصورةُ وحدَها

سَتربطُ بين القلب والقلب.

وإذا ما صرخنا، إذًا
ما أفصَحنا عن أصواتنا الأخرى
فحتّى الملائكة
ستُخفي رؤوسَها تحتَ أجنحتها الثقيلة
لئلا تسمع الصرخة.

هذا ما قالتهُ لنا الكتُبُ
هذا ما كانَ يريدُ أن يقولَهُ لنا ريلكه
ذلكَ الشاعرُ المُترَع بمصْل العُزلةِ والغياب.

لذا، من الأفضَلِ لنا أن نَنسى
أن ننسى الظلامَ الراقدَ بانتظارنا
في جُمْعِ لفظةٍ، طريقَهُ الجَهمة، غاباتِه المرهونةَ
بحريقٍ قادم.

٢

ومن يدّعي، من يقصدُ، من ينوي
إذا عاش، ألاّ يقولَ سوى الوداع، يومَهُ
المضَيَّع، ليلتَهُ المَجروفة في خسارةِ ذا وذاك
مُغادراً بُقعةً ليحتلّ أخرى، حينَ يُقضى
كلُّ أوانٍ، وينقضي
أجَلُ الكلّ في لحظة.

هذه هي القضيّة:
لن تأكُلَ الوَجبة
بلا تأمُّلٍ في نَوعيّة المَحصول
لن تحملَ المِنجَل
إذا لم تعرف اليَدُ جَدوى الحصاد
ولا فكرة
بلا فكرٍ يَحتجُّ على التفكير.

لأنهُ ضُعفُ الدُنيا
الخَلاّب، هشاشةُ العواميد المتهالكة
على كتِفَيّ شمشون: الدرَجاتُ، الأدراج.

المصاعدُ، الأبراج.
القيودُ الحبالُ الأحزمة
الأنشوطاتُ السلاسلُ الأسوار.

كلّ ما يتراجعُ عنك ليلعقَ قدَميك
وقدَماك غائصتان في الرَّمل
والشاطئ يُناجي البحر.

٣

ولا مَشاحة، أنّ الأشياءَ إذا
كانت زجاجاً، ستنكسرُ يوماً:

الكأسُ ستسقطُ على أرضيّة الرخَام
حينَ يُذهَلُ، على مَرأى
الرؤيا الفظيعةِ، الرائي

وكيفَ لك
أن تشهَدَ رحيلَ الشَكل الكامل الشفّاف
إلى قاع السقوط، على الأرضيّة الباردة
وتحسبَ اللحَظات فالثواني
فالسنَوات
إلى أن يصطدم زجاجُ الكأسِ بالحجَر؟

وما معنى أن تُعنى
بأن تعرفَ معناه. . .
وليسَ لك، من بَعد، أن تشفى من هذه الأعجوبة.

وقد يُقال، إنّها الصُدَفُ ـ
صداماتٌ مع جدار الحَتف
هَزّاتُ أرضيّة تُصيبُ الشغافَ وتتركُ بَصماتها
في خطوط الجسَد.

كأن تتطشّرَ قطَراتُ الدهن من مِقلاة
وتحرقَ جَفنَك أو جبينَك أو سبّابتَك
أو أن تنطفئ الأنوارُ في منتصف الليل
وأنتَ تكتبُ شبهَ نائم

شبهَ يقظان.

أن تنقطعَ الجُملة في وسط الكلام، أن تختفي
الأواصر، أن تضيعَ المفاتيح.

لكن في النهاية، لا ما يحدثُ، لا الإستجابة
بل السكّينُ الخَفيّة تحت كلّ المَرامي
كاشطةً جلدَ البَلادة
لتظهرَ الشجَرة
عاريةً إلاّ من عظام الطقس، ولا تبوحُ بكلمة
عن المُتعة أو الألَم.

حَبّة رَمل

كما قد تُضافُ
إلى الزمان حَبّةُ رَمل
نُسَطّرُ ما يمكننا أن نُسطّرهُ
على هذه الصفحة.
هل سيَشمُتُ بنا الزمانُ، وما أدراكَ
بالفضاءِ، مُرعباً في امتداده
إلى ما لا نهاية؟

ثَمّةُ كلمة
تُعزّينا بأصدائها في
خَلفيّة الذكرى، وما من كلْمةٍ في النهاية
تعرفُ كيفَ تكونُ العَزاءَ.

ومعَ ذلك، ما من بَديلٍ
مُذ هبطتْ إلينا هذه الكَلماتُ
من سماء الخالق السكران بالخليقة.

رغمَ أنّ الحَلاّج قالَ لنا
أنّ التَواصُلَ مستحيلٌ إلاّ على

حافّة النَطع، والمتصوّفة الأجبنُ منهُ
أنكروا الإستحالة.

قد يكون كلُّ هؤلاء
على حقّ، فالروحُ كساعي البريد
تستلمُ الرسائل لكي توصلها إلى
الأهل، لكن أينَ الأهلُ في هذا الليل
يا تُرى، ومَن قد يكونون؟

معَ أنّ الليلة جاهزةٌ لاستقبالِ مُعجزةٍ.
في مكانٍ ما، في أيّةِ لحظة.

والنَرجسُ يُغطّي وجهَ الأرض.

نصوع

تمسحُ اليَد
ما تستطيع
لكي ترى اللوحة
ناصعةً مثلَ صباحٍ تساقطَ فيه الثلج.

هكذا يَقتربُ الشتاء
من نهاية البَلوى
حينَ تَنفرُ الروحُ من كلّ تَطَلُّعٍ، والمرآة
تتجاهلُ الوَجه.

ظلامُ تشرين حيثُ أمشي
في أروقةِ هذا البيت
لن يُهدئَ من رَوعي، ولا مَقدَمُ الليل يُواسيني
أو يُطامنُ نهضةَ الأطياف
من مَراقدها الغَبراء.

هذه الكلمات، أبداً، تهبُّ في مُفترَق الطرُقات
بين النوم واليقَظة.

الثلجُ كما يبدو
كانَ يتساقطُ حقّاً طوالَ الليل.
واليدُ تمسحُ ما كتبَتهُ على الصفحة.

٢

لحظات في الحديقة

ما هي إلاّ
بضعُ أُمسيات مَرّت
ولم تمرّ، أتوحّدُ فيها خلفَ البيت
أمامي أعشابٌ يابسةٌ عالية بالكاد تحجبُ عنّي
شظايا الزجاج المتلألئة المرصوصة
على السورِ، في الشمس
الضعيفة.

أجلسُ لأحسبَ الثواني
لأفهمَ ما معنى أن أمضي
أو أن أبقى في مكاني.
حالماً دونَ أن أُتابعَ الحُلم. صامتاً وفي نيّتي
أن أصرخ. أمامَ بيوتِ جيراني
تُرفرفُ راياتٌ كبيرة.
جنَرالاتُ أمريكا
يشحذونَ آلةَ الخَراب.

صامتاً وفي نيّتي أن أصرخ . . .

لا هذه اللمحةُ التي
أقنصُها من ملحمة الطبيعةِ سرّاً
تقودني إلى سرّ أطمحُ أن أستجليه
بكلّ تلافيفه المظلمة يوماً، ولا ذلك المنحنى
في ذاكرتي يسمحُ لي
أن أرى القناعَ الهاربَ دوماً
في أزقّة حياتي الماضية.

الواقعُ أنني هنا، في هذه الزاوية:
يدايَ في حضني، عيني
تُلاحقُ بعوضةً تطنُّ بين الأعشاب.
تطيرُ فوق السور، تأخذُ أفكاري إلى المجهول لحظةً
لا أفكّرُ فيها، لا أحلمُ، لا أريدُ شيئاً.
لحظةٌ جديرةٌ
بأيّ ناسكٍ بوذيّ.
ثمّ انتهت تلك الأماسي، وعُدتُ إلى
عالم المجانين.

طفلة الحرب

(إلى طفلة عراقية ولدت في الحرب، وفي الحرب ماتت).

الطفلةُ جاءت، تلك المفقودةُ
في الحرب
واقفةً في نهاية الممرّ، في يدها شمعة
أراها كلّما استيقظتُ من نومي
في الساعة الأولى من الفجر. إنها تنتظرُ ارتطامي
بجدار الحقيقة.

عيناها
الكبيرتان من فظاعة الحكمة
تصبُران في أشواك الرُبى
حيثُ أفكاري تجوسُ ليلاً، يدي التي
بإمكانها أن تقطعَ قيودَها
صوتي الذي قد يطرحُ أسئلةً
على القاتلِ أو الربّ
تعرفُ هيَ أجوبةً
عليها...

كم طالت الحربُ
يا طفلة؟
كم من الليالي
في قاعِ أيّةِ بئر؟ أيّةُ أبديّة للأذى الآتي
من كلّ الجهات؟
ماذا كان الجنرالُ ذو الأربع نجمات
سيفعل، إن حرَموا طفلتهُ من حليبها ليومٍ واحد؟

تقولُ الطفلة:
لقد أخذوا أهلي في سفينة
إلى العالم الآخر.
كنتُ أعرفُ دوماً
أنهم سيتركونني هنا، وحدي، على الشاطئ.
كنتُ أعرف...

حديث مع رسّام في نيويورك
بعد سقوط الأبراج

إلى إيفان كوستورا

«نهايتُك أنت
من يختارها» قالَ صديقي الرسّام.
«أنظرْ إلى هذه المدينة. يشترونَ الموتَ بخساً، في
كلّ دقيقة، ويبيعونهُ في البورصة
بأعلى الأسعار».

كانَ واقفاً على حافّة المتاهة
التي تنعكفُ نازلةً على سلاسل مصعَدٍ واسع للحمولة
سُفُلاً بإثني عشَرَ طابقاً إلى
مِرآب العمارة.

«إنّها معنا، الكلبة.
سَمّها الأبديّة، أو سمّها نداءَ الحتف.
لكلّ شيءٍ حَدّ، إذا تجاوَزتَهُ، انطلقتْ عاصفةُ الأخطاء.
إنها حاشيةٌ على صفحة الحاضر

خطوتُها مهَيّأةٌ لتبقى
حَفراً واضحاً في الحجَر.

أرى أصبعَ رودان في كلّ هذا.

أراهُ واقفاً في بوّابة الجحيم، يُشيرُ إلى
هُوّةٍ ستنطلقُ منها وحوشُ المستقبل، هناك
حيثُ انهارَ بُرجان، وجُنّت أمريكا».

العقرب في البستان

سوداءُ هي الأشكالُ الحاقدة
في مَرابع الطين، بين ممالك الطحلب اليابس
بعد أن تخفَّ حرارةُ النهار، ويَرتعَ الظلّ
كتاريخِ حالِك في تَعريشة البُستان
وإذا باللَيلِ هو الليلُ كما لم يُلْيِلْ من قبل:
لادغةٌ العقرب عاليةٌ
ومَعقوفة بينما تتقدّم مثلَ جَرّافة على الممشى
لتخلطَ الإسمنتَ بالدم في ليلةِ صيف
لتصلبَ القَدَم
على خشبة الأزمان الوقحة
في مَدخل الجحيم، على بابِ جنّةٍ مفقودة. . .
أنتفضُ قافزاً من تأمّلاتي
أنا الحافي القدَمين
في البُستان
وأرمي تلك الجَرّافة المُبحرة في الهواء
بأيّ شيء تَطالهُ يدي: بفنجاني، قلَمي، كتابي
بشتيمةٍ، بتعويذةٍ، بصيحةٍ بَحّاء
بلعنَةٍ، بفَردة الحذاء.

مرثيّة إلى سينما السندباد

هناكَ طريقٌ
تُرصّعها سقوفٌ غسلتها الذاكرة
حتّى ابيضّت، تحت سماءٍ بلغتْ أوجَ حُرقتها، حيث
أسيرُ، حيث كلماتي تريدُ أن تعلو مثلَ أدراجِ قلعة
مثل اصواتٍ ترتقي السُلّمَ الضائع
نوطةً بعد أخرى
في دفتر صديقي، عازف العود، صديقي
الذي ماتَ، من صمته، في وحشة المنفى.
أعثرُ على ذلك الصوت. أجدُ المبنى
وأفتحُ باباً إليه:
زماننا وكيفَ ضيّعَ تَذكراته!
يجري في الظلامِ مثل ساقيةٍ صغيرة
من أصواتِ كلّ من لم يعُد لهُ صوت!
قالوا لي. . .
أنّهم هدموا سينما السندباد!
يا للخسارة.
ومن سيُبحرُ بعد الآن، من سيلتقي
بشيخ البحر؟
هدموا تلك الأماسي. . .

قمصاننا البيضاء، أصيافُ بغداد
سبارتاكوس، أحدبُ نوتردام، شمشون ودليلة
وكيفَ سنحلمُ اليومَ بالسفَر، إلى
أيّةِ جزيرة؟
هدموا سينما السندباد!
ثقيلٌ بالماءِ شَعرُ الغريق
الذي عادَ إلى الحفلة
بعد أن أطفأوا المصابيح
وكوّموا الكراسي على الشاطئ المقفر
وقَيّدوا بالسلاسلِ أمواجَ دجلة.

شكل للصلوات المفقودة

كلُّ ما كنّا نعرفهُ
في دُنيانا هذهِ، كانَتهُ:
تلك الأشكالُ للصلوات المفقودة
والأسئلة الضائعة، صاعدةً أمامَ عيوننا مثلَ بُخارِ.
في خاناتها المتألّقة بالأنوار التي
كانت لها آنذاك، ثمّةُ بُقيا؛
وفي باطن السَّمْع، صوتٌ يتكسّرُ كالموجة
المشدوهة بنفسها، على رَمْلة.

كم من شيءٍ قابلٍ للإيمانِ بهِ
يعرضُ نفسَهُ على العابد!
اللّهُ على لسانهِ حليبٌ رائبٌ
وما من شيءٍ إلاّ وينسَلُّ خارجاً منِ اسمهِ
كما الطَّلعُ الهاربُ من زَهرة.

في الليالي
تَفرشُ الرغبةُ نفسَها
مثلَ عَروسٍ ليلةَ العُرسِ أمامَ مرآة
والظلمةُ غابةٌ من وعودٍ لا تُوهنُ من عَزمِ العابرِ

نحو مواعيده المتئمة.

كم رغَبنا أن تستمرّ الأمورُ كما هيَ:
أن نُقشّرَ مساءاتنا كبرتُقالة، وأن نَجسّ نبضَ القلب.

لكننا كنّا دائماً ندري أننا منذُ الآن
أسرى أيّام لا تعرفُ إلاّ أن تعودَ طافرةً
في أقواسها المرسومة، مثلَ كلابٍ مُدَرَّبة
مالئةً آفاقَها، مُنيخةً على
هاماتنا، حيثُ نركع على طرَف البُركة
الشحيحة لنشرب، أو نُصلّي
أو نُهلّل لمن وُلد، أو نَرثي
لمن مات.

١

أغنية القَطا

(ترجمة شخصيّة)

أنتظرُ الآنَ
إشاراتِ
في الأوراقِ
تَدلُّ على الصائدْ
وأموتُ مِراراً
وأنا واحدْ.

كيف وُلد الغناء الشرقي

نبي

أُجَمّعُ نفسي
عارضاً وجهي للبرق
وأنا أهذي بانتظار أن تتركني
الموجة
على شاطئ مجهول، مُقيَّداً
إلى حَجَر.

كتاب

إفتَحْ كتابَ الزمَن
بأصابعَ مرتجفة، واقرأ:
ها هي حياتُك مشدودةٌ من شَعرها
إلى وتَد الأيام، كأنها امرأةٌ
تُريدُ أن تبوحَ لك
بأوّل الأسرار
وآخرها.

كيف وُلد الغناء الشرقي

نبي

أُجَمّعُ نفسي
عارضاً وجهي للبرق
وأنا أهذي بانتظار أن تتركني
الموجة
على شاطئ مجهول، مُقيَّداً
إلى حَجَر.

كتاب

إفتَحْ كتابَ الزمَن
بأصابعَ مرتجفة، واقرأ:
ها هي حياتُك مشدودةٌ من شَعرها
إلى وتَد الأيام، كأنها امرأةٌ
تُريدُ أن تبوحَ لك
بأوّل الأسرار
وآخرها.

اللّه

شاءَ اللّه
للعالم السُفليّ أن يتجلّى:
أزقّةٌ مظلمةٌ، حزينة
كُتبَ على البشَر أن يَتيهوا فيها
إلى الأبَد.

عُود

ثُمَّ كانت الأيّام
ودَسَّ أحدهُم بينَ يديَّ
هذا العُود، وعلّمني كيفَ أغنّي
بهذا الصوت الجريح.

المرأة الجانحة مع الريح

لو رأيتَها، تلك المرأة الجانحة مع الريح
وفي عينيها علائمُ زَوبعةٍ قادمة
وشَعرُها، منذُ الآن، ينتفشُ في دُوّاماتها
لا تتردّدْ، أيّها الصديق، وخَبّرني
فهي قد تكونُ ضالّتي
قد تكون من ذهبتُ أبحثُ عنها في القُرى
والأرياف البعيدة
حالماً أن أجدَها في زُقاقٍ مُقفر، ذاتَ يوم
تُطلُّ من نافذةٍ، أو تحملُ طفلاً
بين ذراعيها، أو حتّى
أن أعرف أنّها هيَ، في ثمّة صوت
في ثمّة أغنية على الراديو تقولُ أشياءَ جميلةً
عن الحزن، أو الهجرة.

وقد لا تراها
سوى في جَناحي فراشة
ترفرفُ لازقةً في قار الطريق
عينيها الملطّختين بمكحَلةٍ عابثة

نَهديها المثقَلين بأنداءِ حُزنِ أُمّةٍ، وفاكهتَها اليتيمة
كبضعةِ أحجارٍ في سلّة
تعودُ بها من سوقٍ أقفلتْ دكاكينَها
تَصفُرُ في أخشابها الريح، على أطرافِ بلدة
وُلدنا فيها، وحَلمنا أحلامَنا الصغيرة
وذاتَ يومٍ، هجَرناها.

كيس التراب

أُمُّ محمّد
قارئةُ الفنجان
المرأة التي يتدلّى
من رقبتها النحيلة ما يبدو
للوهلة الأولى
أنّهُ قَلادةٌ
وليس سوى كيساً أسودَ من جلد
قالت
أنه يحتوي على
قبضةٍ من تراب الوطن
هي الجالسة على دكّة حجريّة
في الساحة الهاشميّة
بعَمّان
مع آلاف الآخرين
بانتظار أن تحصل على فيزا
إلى أيّ بلد
قالت
أنها عندما
عبرَتْ حدودَ البلاد

أيقنت
أنها قد لا تراها
في هذا العالم مرّةً أخرى
لذلك
ستحملها أينما انتهى
بها المطافُ
كالنَير.
أينما انتهى بها
المطاف، ستحملُ هذا
الكيسَ الأسوَد
من التُراب.

نيران

لأنهُ احتراقٌ، ولا ترى النار
الصمتُ وحدهُ ينسلُّ عبر الدرَفات
في بيت مهجور. صمتٌ لا يدلُّ إلى مكان.

ينتهي حيث يبدأ، نفَساً يُدوّمُ حول حلقة الحُمّى.

من يحترق، يحلمُ بالجنّة. من يغرقُ في النعيم، لا يريدُ أن
يرى النيران.

ها هو جوهرُ الصوت الصارخ في البريّة.
إنه الصمتُ مقلوباً مثل بطانةِ سُترة السجين الهارب.

تخيّلْ أنكَ هناك.
يسقطُ الضياء في شذَراتٍ ضائعة
ما وراءَ رأسك. دُخانُ المقتلة يتبدّد. ها هي الحفرة

هنا تتجمّعُ الإشارات. هنا تسقطُ الأبراج.

والعُقبانُ والمراسلون والكاميرات تزحفُ نحو أوّلِ جُثّة.

يمكنُ لك أن تتحاشى النظر. يمكنُ لك
أن تُسمّيها «متاهة الكتمان». أنظرْ إلى فم المذيعة.

إنه لا يقولُ شيئاً بينما يهذرُ بكلّ ما يبدو أنه الجواب.

أطفئ هذا الصندوق المليء بقيء «الأخبار»
تسقطُ فيه أمَمٌ كاملةٌ، وتنهضُ في مكانها الأشباح.

جياعُ إفريقيا، هياكلُ العظم، الذبابُ والصُبّار.

أطفالُ العراق في أراجيح الموت
تُهدهدهُم يدُ التنّين الآتي
ليشرب الذهبَ الأسودَ النابع من قلب الأرض.

وهذا الصمتُ الزاحفُ من مقتلةٍ إلى أخرى
مليءٌ بالضجّة، لكنهُ فمُ المومياء.

قراءة

(في شواهد الحاضر)

إنها إمّا أنجُمٌ ساقطة
أو نُذُرٌ تُرعدُ في وجوهنا بالنبوءات:
عاصفةٌ، زلزالٌ، حربٌ، طاعون.
هناكَ من يُعبّئُ الأجواءَ بالخوف، بالجنون، بالريبة.

الليلُ من العُمق بحيثُ لا تصلُ الصرخات
إلى السطح. الممالكُ الممزّقة
تطفو في الداخل على شكل بقايا: صاحبُ المقتلة
يبدو كأنهُ الضحيّة؛ الصوتُ لا يعرفهُ صَداهُ، اليدُ اليُمنى
تجهلُ يُسراها.

يبدو أننا دوماً نأتي إلى هذا المكان.

نغذُّ خُطانا كأن الغد يدعونا بجُمع كفّه في الأفق
وإذا بنا نأتي إلى هذه الفُسحة من الصمت.

هذه الفُتحة التي لا تؤدّي إلى مكان.

عندَ هذا المَفرقِ نتوقّف. بانتظارِ أيّ قطار؟
مَن الآتي، من أينَ، حاملاً أيّةَ أنباءٍ؟

شوكةُ الطرقات المفقودة هذه، تتفرّعُ أمامَ بيتي.

بيتي المسيَّجُ بالعاقول، بيتي
الذي يَلطأ في أخدود، يختنقُ بالأعشاب
الضارّة، وبضعُ سَوسنات بريّة خلف سياجي
تُطلُّ بأعناقها الخَفراء فوق بحرٍ من النفايات:

عبرَ أغطيةٍ من خِرَق الأعلام الأميركية المرفرفة
وإعلانات عن الكوكاكولا، تتطوّحُ جبالٌ عالية
طلعت من لُجّة الأبسو، بيضاءَ كالملح
لابسةً زُرقةَ النهاية.

*

كلّ ما هو حيّ لهُ وجههُ الآخر:
المفتاحُ الخارقُ الذي تنفكُّ له المغاليق
يملكُ موسيقى النجدة والإمتلاك ـ مثلك، مثل حبّك الجديد

جَسدٌ يأتي بهِ
الصراعُ الذي لا بُدّ منهُ
لرَجْم الأحاسيس بالحجارة.
تَخيّلْ نيراناً تندلعُ من مرافئ الجسد (قد لا تُرى، لكنها هناك)

تخيّل من اصطلوا بتلك النار، الزمانَ الذي يقتحمُ القلعة.

صرخةً لا يُطلقها أحد. فماً يتلوّى في حشرجة أخيرة.

احتشادُ الأحتاف
على قارعة المصير الواحد
والحالمُ آلةُ موسيقى تعزفُ عليها كلّ هذه الأيدي.

❊

الشمسُ في كلّ أمسيةٍ تنحدرُ
كقارب صيّاد سومريّ وراءَ بيتي
تاركةً في إثرها دُخانَ خرائب ورديّة في الأفق

وفي الليل تصفو السماءُ ثانيةً
كما يصفو النهر بعد أن أُلقيتْ فيهِ ذبيحةٌ أخرى.

والعَزاءُ في كلّ هذا
ليس أكثرَ من كلمةٍ. والقلبُ نَبرةٌ بسيطة.

أعوامٌ تكرُّ، لا يعدّها أحَدٌ
وإذا بي واقفٌ، لمّا أزل، وقد ابيَضَّ شَعري
بانتظارِ من يعرفُ مَن أو ماذا، في مَدخَلِ هذا الباب.

٢

شارة الإنبعاث

شارةُ الإنبعاث اليوميّ كفّت عن الإضاءة
في آخر النفَق، لم أعُد صالحاً للإنجراف
مع المُناخات الزائلة

(لقد خرّبوا ألأوزون، تقولُ الجرائد
من أجل هذه السيّارات اللعينة.)

ربّما كانَ هذا هو المعنى:
أن تتركَ المحطّات خاليةً وراءَك.
أن تُغادر، قبلَ أن تغادركَ الأشياء
وأن تتعلّم كيفَ تحيا، هكذا.

تشمُّ رائحةَ الأُشنات على ساحل البحر
حيث تمشي كلّ مساء لتستعيد قُدرتَك الأولى
على التنفُّس: كم كان من الصعب أن تُطلّق التدخين!

أن تُطلّقَ السحر مثلَ بروسبيرو
في مسرحيّة شكسبير الأخيرة، وتكسرَ عصاك.
الريحُ تكفّ عن عوائها في القصيدة.

تعودُ، كلَّ مرّة، إلى الأرض
لتنسى مَذاقَ
الجنّة.

شارة أوضح من الشمس

إلى نُهى أبو الحسن

من أجل ما لا يُتَلفَّظُ بهِ

من أجلِ ما لن يُقال، لأنَّ الشفة
بعدُ لم تُخلَق، لأنّ اللسانَ غيرُ موجودٍ، في
هذه اللحظة من الزمَن

لا نعرفُ الكلمات.

من أجل الطريقة
التي بها نلتقي
في ضباب الصُدفة

في لايقين اللقاءات، والأغنيةُ بالكاد
تُراهنُ على السامع

والصَّمت
يكتري مساحاتِ الحُلم

حيثُ أهربُ شاكياً كلّما تزاحَمت في فمي
الكلمات.

من أجل أذنيكِ الرهيفَتين هذه الموسيقى

يمكنكِ أن تسمعي البَحر
وكلَّ لغاتهِ كأنّما في صَدَفة.

ليسَ لأيدينا أن تتلامسَ عبرَ الأمداء:
محيطٌ بين ما ستقولهُ
الأصابعُ لبعضها، نهرٌ لن نعبرهُ بقارب.

هاتان اليَدان في هيئة الصَلاة
إلى ربٍّ مجهولٍ يسكنُ القصيدة

تعرفان الطرُقَ الخبيئة في جِلد الهواء
وأقطاراً نائيةً لن نحتاجَ إلى السفَر

لنعرفَ أنّها لنا...

فهذهِ حالةُ النعْمة هذه قَداسةُ الكلام
والشِّعرُ بيننا شارةٌ أوضَحُ من الشمس.

وردة الدنيا

أستاذَ القرابين، سيّدَ اللوائح المقمرة
بأوجُه الضحايا، دَحرجْ أقدامكَ في هذا
الصباحِ، من أجلي، على قَفا الدنيا.

تَرجُمانَ أشواق القتَلة
في أدنى مَراتب الدنيا، شُدَّ ضفيرةَ هذا
المتصوّف المذهولِ في صومعته المليئة بقيء الأحاجي

وقُل لنا، نحن المحيَّرين: من مضى، ومن سيأتي
إلى هذه الدنيا...

«من مضوا، مضوا.
وربّما كانوا أقربَ الآن
من أسوار الغياب، وربّما
وجدتَ ذاتَ يوم خاتمَ الدنيا

على إصبع أخيك الغائب».

هذه اللعبة المغشوشة مع اليقين

ما زالت ترنُّ بوَقع عُملة المملكة الضائعة
على أرضيّة الإسمنت.

بالوجه المشوَّه الآخر للدنيا...

مضوا.
وفي صباحيَ هذا، أدوسُ ظلّي
مُنَكَّسَ الرأس، مُثقَلَ اليدين بوردة الدنيا القتيلة.

صفير في الظلام

هذا التَطوّحُ المحموم خلفَ بارقٍ يلوحُ ويختفي
كعَصا الساحر المتخاطِفة بين أرتال السَّحاب

في نظرة امرأةٍ مرغوبة تفتحُ بابَها على حافّة الحيرة

بين تلافيف الكلمات المدَجَّجة في أثلامِ سَديمها
كأضواءِ مدينةٍ تاريخيّةٍ تنوسُ بأعتابها المقَدَّسة على تلّة

هذا الصَفيرُ في الظلام المُرَصَّع بعينٍ سكرانة
تَبرقُ في طين الخليقة، هذه المصائرُ الملتفّة كاللُبلاب

في كلّ خطوةٍ أخطوها، هذا المشيُ إلى الوراء

للقَبض على همسةٍ أو لمسةٍ أو نظرة
على كمشةٍ من الجِير النَيّار ما زالت تُنيرُ عُتمةَ القارورة

هذا الحلمُ الأقوى من الواقع
هذا الوهمُ الأجملُ من الحقيقة

كلُّ هذا حتى تستطيع لمرّةٍ واحدة
أن تَشمَّ رائحةَ المعجزة في الريح
كما تشمُّ فَرسٌ هالكةٌ رائحةَ البِرسيم في آخر الرحلة.

سكّة

نوافذُ القطار الأرضي
غائمةُ الزجاج، تفرُّ الأشكالُ عبرَها
كأنّما من عفريت، وتنفرزُ وراءَنا في خَانة الفَوائت. . .

زعيقُ العجَلات على السكّة
ظهورُ المحطّة التالية في انعراجة النفَق الملئ بالعويل
وبضعةُ صعاليك على الرصيف
يكرعونَ الخمرة من قَنانٍ مَخفيّة في أكياس الورَق.

إنهُ نفسُ الفراغ الطالع
من حضرة آخر الليل في أيّة مدينة
مُتخَمة بالأحياء وبالموتى: باريس، برلين، لندن، نيويورك.

آخرُ الغرب. نهايةُ الخطّ. سكّةُ الختام.

نهر الصراخ المكتوم والهمس والدهشة

ثمّةُ نَهرٍ
لا أعلمُ. . . من أينَ
يفيضُ، وأينَ يَصبُّ، وهل هوَ نهرٌ؟

نهرٌ يحملني
كالمَهدِ إذا عُدتُ وحيداً
من آخرِ بارٍ أغلقَ أبوابَهُ في البَلدِ

أم أصواتٌ متَربّصةٌ
بينَ تلافيفِ دماغي السَلفيّةِ تَرغي وتَموجُ

(صُراخٌ مكتومٌ في لاحُنجرةٍ
همسٌ شيزوفرينيٌّ مختلطٌ بعَويلٍ)

تُوجِسُني شَرّاً
من ظلّ القامات المترنّحةِ
المصطفّةِ في ضَفَتَيهِ:

أعداءٌ كنتُ أظنُّ الموتَ

تَكفِّنَهُم في أقمشة الأبَدِ
من أيّ سَفرْبَرْلَكِ عادوا!
يَتخَفّونَ بأعراف الخيلِ، ويُخفونَ وراءَ خناجرهم وَعداً

بولائمَ لن تُنسى
ستُقامُ قريباً بين خرائبِ بيتي
حيثُ سأحفرُ للمستقبلِ قبراً بيديَّ، وأُودعهُ القبرَ، بنفسي.

قاماتُ لصوصٍ نَهبوا التاريخَ
كأنّهُ بَنكٌ، ولهُم هَمٌّ واحد:
أن يَقتسموا الوارِد
باسم وعودٍ جاءت في كتُبٍ
دَشّنها بالسيفِ طُغاةٌ لا حَصرَ لهم
وبَهاليلُ بلا عَدَدِ
يندفعونَ الآنَ مع الدُنيا
في إعصارٍ لَجِبٍ حولَ مَحاورِ خوفي:

تلك الأعمدةُ المَجبولة
من عَرَق الأيدي الناضحِ في قَصر كوابيسي
وفضولِ الرائي من خلفِ ستارٍ
بخصوصِ رؤاهُ حينَ يرى، ما لم يَرَهُ...

وكما في كلّ مغامَرةٍ، في آخرِ كلّ مَطافٍ
يأخذني هذا النَهرُ السريُّ إلى بيتي.

٣

على مشارف الرقصة

لم تكن تعلمُ ما يُلقي
بكَ في الأحراش والطرُقات
ما يحاولُ أن يستعيدك دائماً من قبضة الوقت

هل تعلمُ لماذا يختفي ثانيةً في مجاهيلهِ
وجهٌ رأيتَهُ في نافذةٍ، في بابٍ، في محطة قطار؟

طالعاً ثانيةً من أسترة البُخار في رأسك
عندما تستيقظُ من ليلة سُكر ثقيلة

أو عندما، بعد أرقٍ طويلٍ، تنام
بشفاهٍ لا تقولُ شيئاً، بشفاهٍ كان يمكنُ أن تقول
ها هي الكلمة التي لم تنم من أجلها أيّاماً ها هيَ الكلمة!

«أيها الصعلوك الخارج من سِفر التكوين
ليُخرّبَ بندولَ الساعة»!

من أرْسَاكَ في هذه الدُوّامة مَنِ اقتلعَ الأوتاد؟

ربّما اختلاطُ الأقوال. انهيارُ المعمورة. تَهَيُّجُ الأبعاد؟
بسرعة الإنخطافة العابرة وحيرة **الديجافو**.

ماذا يشدّكَ إلى الطريق:
الخالُ في الصَّدغ؟ النُقرة في الخدّ؟ الخاتَمُ في السُرّة؟

وجهُها الملغَز بأسرار الليلة الماضية
عندما تنزلُ الدرَج
وتجلسُ إلى المائدة في الصباح
تحدجُ بيضتَها المسلوقة بعينيها الناعستين حتى الضجر.

هنالكَ أيضاً، فيهما، يكمنُ شيءٌ
أقربُ ما يكون
إلى يدك، وأبعدُ ما يكون... عن أبعَد الأحلام!
لكنّ أحدهم تَكلّم، وأسقطَ كلامَه مثلَ صَحن من خزَف

على أرضيّة الصمت

مقدَّساً كأنّما، أيضاً، هنالكَ، كان:

أيّةُ نوتردام مُشَيّدةٌ من الأخطاء

تنهارُ على رؤوس عُبّادها بضربةٍ من ناقوس الأيام الدخيلة؟

مرورُ العالم. قشرتهُ اللمّاعة. موكبُ الغُبار
والعرَبات. بَهرجةُ المدينة.
حفلةُ البضاعة
الكاسدة وأيدي الباعة الدَبقةُ الأصابع
بزَناخة العُملة المتداوَلة
حتى الإهتراء

وفي كلّ مرّةٍ لم يكن لك، منذُ البدء، اختيار
لأنها الرقصة التي لا عالمَ من دونها. لأنها الرقصة.

عيد القدّيس الفُلانـي

عيدُ القدّيس الفُلاني، أو لعلّهُ
العاشقُ السيّئ الحظ، يومُنا هذا. . .
شتاءٌ يأتي.
من الصعبِ أن نبقى
في تلاؤمات البردِ، صَحابةَ صيفٍ!
أن نجعلَ القلبَ ينتظر
والمخيَّلة تُقارع العالم. أن
نكونَ مُمَشِّطي الموجة. زبّالي السماء. ندري
أننا جميعاً نخونُ شيئاً ما. أيّاً كان. في
كلّ لحظة.
من قبلُ أو من بعد.

أم هل أنّهُ العالمُ، يخونُ ذاتَهُ، كلَّ لحظةٍ، فينا؟

شتاءٌ يأتي. . .
العُزلة ستأخذنا مثلَ خيمة
انفلتت من أوتادها لتهيمَ بين الكُثبان
في صحراء «الوُهَيبة» التي لها شكلُ قلب
مُعلنةً حُبّاً أتلعَ بملْ افتراعهِ ليأخذنا إلى البعيد.

مَسرّتُنا والوجَعُ؛ سَعادتُنا والألمُ الرهيف.

رأيتُ روحي الليلة
كدودة القَزّ، الصغيرة
تزحفُ نحو انبعاثها في جسَد الفراشة.

رأيتها تسعى
لتلفُظَ آلامَها في حريرٍ
قد يُنسَجُ منهُ ثوبٌ لفاتنةٍ تتعرّى في آخر ليلٍ ما

تتعرّى، وتستسلمُ لعاشقها، الذي قد يكونكَ، أنت
أيها العِربيدُ الذي هوَ أيضاً أنا

أو قد، أنا الحالمَ بلا أحلامٍ، يكونني.

شارع سقراط

هذا وحدَهُ، شبراً شبراً
نَفَساً نفَساً مثلَ بخيلٍ أسَرَتهُ عُملتُهُ
أشبَهَ بالعابدِ في خُلوتهِ، أركعَهُ شيءٌ لم يرَهُ.

العالمُ يا سيّدُ آلةُ نسيانٍ، تمحو
الآثارَ السابقةَ بآثارٍ لاحقةٍ ما أسرعَ ما تمحوها
آثارٌ أخرى: هذه حَركيّتُهُ (هذه لعبتهُ) ولكلّ منّا دَورٌ
لم يَختَرهُ، لكنّ عليهِ
أن يلعبَهُ.

مَن يجرؤ أن يتخلّى
عن دورهِ، مجنونٌ، بطلٌ، أو قدّيسٌ يرمي أنشوطتَهُ
نحوَ مَدىً أعلى
لكنّ صليبَهُ أحياناً، سُلّمُهُ.

أيّ ديوجينَ يُرينا
إنساناً، أيّةُ أنتيغوني تتحدّى
كِرْيونَ السكرانَ بسلطتهِ؟ أروني تلك البطلة.

العبدُ النائمُ في إصطبل السيّد، يحلمُ أيضاً
أنّهُ لا يُسلمُ بالأمر الواقع. . .
ذاك الطيّار المجنونُ غداً، لا فرقَ لديهِ
أن يقصفَ بيتكَ أو بيتي.

هذا ما يجعلني أتكلّمُ أحياناً
ولذا سأقولُ: لقد مات المايسترو يا سيّد
لكنّ الموسيقى ما زالت تنعزفُ لمن يُصغي.

هذا وحدَهُ، لا أكثر. لكن لا تسألني ما هذا.
لا أحدٌ يوقفُ سيرَ العجَلة.

هذا ما قالهُ رجُلٌ
لم أرَهُ قبلَ اليومِ ومن يدري
إن كنتُ سألقاهُ ثانيةً بعد الآن
لقيتهُ في شارع سقراط بالصُدفة، ونسيتهُ بعد قليل.

هذا ما حلمتْ بهِ سيّدةُ الأقدار البَطِرة
وهيَ تُصَوبِنُ عانَتَها في أبخرة الحمّام العَطرة.

عُقاب الأبديّة

العُوَينات تحت ضوء المصباح.

عنوانُ الكتاب على الرفّ.

❊

يستيقظُ الحلم، بأجفانٍ مزرقّة، بين رجلٍ وامرأة.

حُلمتُكِ في فمي أليَقُ بأعياد باخوس من عنَب الآلهة.
نَهدُكِ الأبيض كوكبٌ من حليب
أرشفهُ بنظرة.

❊

دعوا للنهر أن يجري، طوالَ الليل، بينهما. لماء الأغاني
أن يسيلَ في كلّ أخاديدها، على بطنها، إلى دَلتاها.

❊

صوتُ المطر.

عُويناتي الغائمة ببُخار أيّامي.

وعُقابُ الأبديّة الجاثمُ في لازَمَانهِ على رفّ الكتُب.

هادئٌ ميزاني

عندي ما عندي، وميزاني هادئٌ، بكفّتيه.

تخرجُ الحياة عاريةً من بيتي إذا أقبلَ الفجر.

يصيحُ التجّار وكروشهم تهتزّ، مُمَسّدينَ لِحاهُم:

«ما أجملَ تلك الجوهرة البديعة بين فخذيكِ...»

وتَفحُّ الجمجمةُ المعَمّمَة:

«ارجموها»!

وأنا، المُرهَقُ حقّاً، أنامُ ملْ جفوني حتى الظهيرة.

جبل القدّيس

السماءُ سجّادة
فارسيّة، ساطعةُ النقوش، تلفّها يدٌ
غيرُ مرئيّة، فوقَ سَنام الجبل القريب
جبل القدّيس برونو.

أراهُ من نافذتي
الشرقية، حوتاً من ترابٍ
وديانُهُ الورديّة عند الغروب تملأها الظلالُ حتّى
يزحفَ الضبابُ من البحر، ويُخفيهِ
في غلائله البيضاء.

مرّةً، ذهبتُ أتسلّقهُ، وسرتُ على القمّة.

واليومَ أسيرُ في البيت
جيئةً وذهاباً، كمن أضاعَ شيئاً
وكلّما بلغتُ النافذة، تطلّعتُ شرقاً
وألقيتُ عليهِ، خلسةً، نظرة.

كرسيّ القصب

١

كرسيّ القصَب يتأرجحُ
على حافّة الهاوية
ذاكَ الذي كنتُ أجلسُ فيه قبلَ قليل.

بمجرَّد أن أخطو هذه الخطوة
لن يُمكنَ لليوم أن يكون مثلَ البارحة
حتى إذا لم أصلْ إلى مكان.

اليوم بعثوا إليّ بهذه النبوءة
في البريد ـ استلمتُ الطِرْد، لكنني
لم أفتح المظروف.

أكثرُ من نبوءة
تشيعُ في الأسواق هذه الأيام
ويزدادُ، بعدَها، عدَدُ القَتلى.

إسمَعْ. هذا آخرُ الأصوات
وإذا لم تسمع، فما من صوتٍ

بعد، وما من مُنادٍ، ولا حنجرة.

إن كنتَ لا تستطيعُ
أن تنام، لا تنَمْ: هنالك، لو تدري
عالمٌ كاملٌ من اللانوم، بانتظارك.

إسمع. هذا خبرٌ آتٍ.
مُدن تمتلئ بصبر الأرامل. حِدادٌ.
جنازاتٌ، بها الشوارعُ ملأى.

نجمةٌ تسقط. رأسُ قتيلٍ يطفو
بين القوارب. ضفدعٌ نَقّاقٌ، هنا.
سحليّةٌ، حالمةٌ، هناك.

جبالٌ تحرّكتْ، وانهارت
عوالمُ كاملةٌ على رؤوس الغَرقى
وإذا بالفئران إيّاها، تعودُ لتملأ السفينة.

حشرجةٌ تملأ الليل
هذا الذي فيه لن ينهض القتلى
ليُشيروا بأصابعهم إلى القاتل.

خوذةُ الجنديّ الفارغة
جاءَ ليسكنَ فيها الموت، وجاءَ بعدَهُ التُراب.

ثمّ جاء العنكبوت.

على حافّة البئر:
سيّدُ الليل، ضفدعُ الأقاصي.
المسافرُ يُريحُ متاعَهُ تحت نخلةٍ، ويُصغي.

٢

في هذا اليوم العاصفِ، مثلي
يقبعُ النورسُ على السياج بانتظار سمكة
أو أيّ شيء آخر قد يجودُ به البحر.

حولي أوجهُ الحمقى
وأصواتُ الطيور الجارحة.
كيفَ وصلتُ، من دلّني إلى هذا المكان؟

أنا صاحبُ هذه المحارة
أجدُ فيها لؤلؤةً كلّ يوم، وأرمي
بها ثانيةً إلى البحر.

أنتظرُ شيئاً، أو أحداً، كلّ يوم
وأعرفُ أنّ من يمضي، سيأتي.
ومن يأتي، حتماً، سيمضي.

عطشي أعمقُ من البئر.

هذا السطلُ المثقوبُ الذي يضربُ الجدران
في طريقه إلى القاع، لن يمتلئ أبداً بالماء.

سقطةٌ في الليل، ونسمعُ الجُثّة
بكلّ ثقلها البشريّ تضربُ الرصيف.
إنهُ العمّ الذي عادَ من حفلة الموتى.

أنا من يصعدُ هذا الدرَج، كم من صاعدٍ قبلي
ألتقطُ حُطامَ سرّ على كلّ بَسطة
وأدوسُ على أشلاء ثمّةِ قصّة.

إنه الفجر. تستنيرُ المباني.
يستيقظُ العشبُ في أمريكا.
كلّ عشبة تتذكّرُ مجنوناً اسمهُ والت ويتمان.

أنا من لا يصلح لترتيب المراثي
رغمَ أنّ أمواتي كثيرون، وقبورهم
موزَّعةٌ في البراري، تنبشها الذئاب.

هناك بضعُ كلمات لا بُدّ منها
ليستمرّ الكون، كلٌّ منها عالمٌ كاملُ الصفات
كلٌّ منها كوكب.

أنهَرُ كلبَ القبيلة

لكي يتقهقرَ إلى وكره مزمجراً، بأسنان مُعَرّاة
وأعطيه هذه العَظمة.

لئلا تموت الكلمات
لئلا تفتح المدينةُ أبوابَها لابن آوى
أقدّمُ هذه العَظمةَ في كلّ يوم لكلب القبيلة.

٣

دفنوا الدرويش
وظلّت يدهُ طالعةً من القبر
تُداعبُ حَبّات المسبحة.

أنا من يأتي في آخر الليل
ليطرق على الباب
ولا يعرفُ من صاحبُ البيت.

أكتبُ ميناءً من كلمات
ترسو فيه سفُنٌ خانَها البحر
متململاً في كهفي مثل دُبّ في سُبات.

من كانَني
قبل أن أكونَهُ؟ من كنتُهُ
قبل أن يكونني؟ من كنتُ؟ من سأكون؟

نارٌ، بدونها لن يحدث ما
يستحقّ الذكر، بدونها لن يستيقظ النيامُ فجأةً
ليسيروا في شوارع المدينة.

مائدةٌ، لكنها منصوبةٌ لغيري.
عالمٌ، لكنّ ظلّهُ يسقط على دُنياي.
عاصفةٌ في آخر الدنيا، وأنا... المعصوف.

جُرعةُ ماءٍ، وما إن
نتجرّعَها، حتى نرى العلامة
على طريق الظمأ.

أينَها؟ أينَ أمريكا التي عبرتُ البحر
لآتيها، أنا الحالم؟ هل ستبقى أمريكا ويتمان
حبراً على ورق؟

مسبحةٌ من فِقار ظَهري
في يد المتعبّد الملهوف
لن تكفّ عن كرّها حتى يتهدّمَ المعبد.

سرٌّ يحلمُ بأن يعلو
فوق الظلّ. ظلٌّ يحلمُ بأن يعلو
فوق السرّ. عوالمٌ تضيع. سبُلٌ سانحةٌ. أخطار.

يا لها من رحلة.
الميّتُ والحيُّ ضيوفٌ في حانة سيدوري.
من يحتاجُ إلى الآلهة؟

يهتزُّ كرسيّ جدّي المواجه للنافذة.
يهتزُّ على أسوار أوروك.
يهتزّ حتى وهوَ فارغٌ، لا يجلسُ فيه أحَد.

الفهرس